شكسبير

روميو وجوليت

رواية

ترجمة

عباس حافظ

الكتاب: روميو وجوليت (رواية)

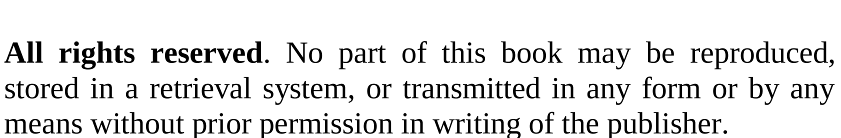
الكاتب: شكسبير

ترجمة : عباس حافظ

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

شكسبير

روميو وجوليت (رواية) / شكسبير, ترجمة : عباس حافظ
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ١٧٤ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٦٤٧ / ٢٠٢١

روميو وجوليت

رواية





القسم الأول

-١-

وقع في مدينة فيرونا، إحدى المدن الإيطالية، في بعض العصور الماضية نزاع شديد بين عشيرتين كبيرتين من عشائرها، وهما عشيرة «مونتاجو»، وعشيرة «كابوليت»، وقد بلغ من احتدام هذا النزاع بينهما أن أصبح لكل منهما أشياع وأنصار في المدينة، وانتقلت البغضاء المتأججة بينهما إلى أبنائهما وبناهما والخدم والغلمان الذين كانوا يعملون في دور أفرادهما، من السادات كابراً عن كابر؛ ففي ذات يوم، اجتمع في الطريق خادمان من دار عشيرة «كابوليت» وهما: "شمشون" و"جريجوري"، وكانا مسلحين بسيفيهما، متدرعين بدرقتيهما، فقد كان الخدم في العشيرتين إذا خرجوا لقضاء بعض الشئون، تسلّحوا على هذا النحو استعداداً لملاقاة الخدم في دار العشيرة الأخرى، إذا ما اشتبك الفريقان كدأبهما في معركة أو مشاجرة لأتفه الأسباب.

فقال "شمشون" لصاحبه وقد وقفا يتحدثان في الطريق:

– يمين الله يا جريجوري لخير لنا أن لا نحمل حطبا ولا فحما.

وكان يريد بهذه التورية اللطيفة منه أن ينصح لصاحبه بأن لا يكون عاملا على تأجيج نار العداوة والبغضاء بين العشيرتين، فيصبحا وقوداً لها كما يكون الفحم والحطب للنيران وقودا. فأجابه صاحبه جريجوري متغابيا، أو ممازحا لاهيا:

– نعم، وإلا كنا حمالين أو فحامين.

– ليس هذا ما عنيته، إنما الذي أعنيه هو أنه متى التهبنا أو اشتعلت نار

غضبنا، وجب أن نتحسب.

- بل لتسحب عنقك من فوق ياقتك ما دمت حيا، فإن الرضى بالضيم مذلة.

- أنت تعلم أنني أضرب بسرعة حين أثار.

فأجابه زميله جريجوري بقوله:

- ولكنك لا تتأثر بسرعة حتى تضرب.

- إن كلبا من بيت مونتاجو يثيرني.

- إن كل ما يثير، يحرك ويحفز، ولكن شأن الشجاع هو أن يقف ويثبت، وعليه إذا أنت أثرت أو حركت.. جريت وهربت.

- إن كلبا من ذلك البيت يحركني فأقف، وعند ذلك «آخذ جدار» أي رجل منهم أو أية امرأة.

وقد أراد «بأخذ الجدار» تورية بارعة عن الهدم أو القتل أو الطعن والضرب حتى يولوا من وجهه الأدبار، ولكن صاحبه حملها على معنى آخر، إذ قال:

- وهذا يدل على أنك عبد ذليل ضعيف، لأن أضعف الناس من «يذهب إلى الجدار».

وهي تورية أخرى، عن الإهمال، والوقوف في مكان الخدم والمستضعفين. قال صاحبه:

- لك الحق.. فإن النساء لضعفهن يطرحن عند الجدار، ولهذا سأجتذب رجال مونتاجو من الجدار وألقي بنسائهم إليه.

فأجابه صاحبه قائلا:

- إن النزاع إنما يقوم بين ساداتهم وساداتنا وبين خدمهم وبيننا.
- سيان عندي فإني أريد أن أظهر بمظهر الطاغية، أحارب الرجال وأقسو على النساء بدق الرقاب وقطع الرؤوس
- هل تعني رؤوسهن؟
- رؤوس النساء أو الفتيات. خذها على المعنى الذي تحب.
- إن من يأخذ المعنى هو الذي يحسه.
- سأجعلهم يحسون بي ما دمت قادراً على الوقوف مكاني.
- هيا أخرج عدتك فإني أرى رجلين من بيت مونتاجو قادمين.
- ها أنا قد عريته من غمده وأخرجته، فإن وقع قتال فإني فيه واقف وراء ظهرك أظاهرك.
- كيف؟ على أن تولي ظهرك وتجري.
- لا تخش مني.
- بل أخشى عليك.
- دعنا نجعل القانون في صفنا، فنتركهما يبدءان.

وهكذا انقلب الذي كان متحمساً متباهياً بقوته وشدته فأصبح حينما جد الجد متراخيا يتحدث عن القانون، ويقول إنه سيكون ظهيراً لصاحبه، ونسي في الحال الدعاوى الطوال التي كان منذ لحظة يدعيها. وعند ذلك قال صاحبه جريجوري:

- سأعبس في وجهيهما عندما تمر بهما وليحملا عبستي تلك على أي محمل

يشاءان.

– أو على أي محمل يجترئان على حمله، وأما أما فسأعض إبهامي فإذا احتملاها مني كان ذلك عاراً عليهما واحتقاراً لشأنهما.

وما لبث أن أقبل خادمان من خدم آل مونتاجو، وكان أحدهما يدعى إبراهيم، ويدعى الآخر بلتازار، فعض شمشون إبهامه، ولمحه إبراهيم؛ فدنا منه قائلا:

– هل عضضت إبهامك يا سيدي لنا؟

– عضضت إبهامي فعلا سيدي.

فصاح إبراهيم به قائلا:

– أنا أسألك هل عضضت لنا يا سيدي؟

فانثنى شمشون إلى صاحبه جريجوري ليسأله في همس قائلا:

– هل يكون القانون في صفنا إذا أنا قلت له نعم؟

قال مخافتا: "كلا". فالتفت شمشون إلى إبراهيم، وأجابه قائلا:

– كلا يا سيدي لم أعض إبهامي لكما، ولكنني عضضت إبهامي فقط.

وهنا تدخل جريجوري فقال لإبراهيم:

– هل تريد شجارا يا سيدي؟

فبهت إبراهيم، وأجاب قائلا:

– أشجاراً تقول يا سيدي. كلا.

فتقدم شمشون – وكان كما رأينا قد تخاذل– فقال:

– إذا كنت تريد شجاراً يا سيدي فأنا لك. إنني أخدم سيداً فاضلا كمن تخدمه.

– ولكنه ليس أفضل منه.

ولكن شمشون لم يجب، فقال له صاحبه جريجوري:

– قال أفضل منه، فإن أحد أقارب سيدي قادم نحونا.

فتشجع شمشون وأجاب متحديا:

– أي نعم أفضل منه يا سيدي.

فأجاب إبراهيم محتداً:

– أنت كاذب.

وعند ذلك صاح شمشون يقول:

– إن كنتما رجلين فأشهرا سيفيكما، وأنت يا جريجوري تذكر ضربتك القاضية.

وأقبل الفريقان يتقاتلان. وفي تلك اللحظة وصل بنفوليو فشاهدهم يتقاتلون فصاح بهم قائلا:

– تفرقوا أيها الحمقى، وأخفضوا سيوفكم فأنتم جهلاء لا تدركون عاقبة حماقتكم.

قدم تيبالت، وكان يمر من الموضع عرضا، فلما رأى بنفوليو خصمه وخصم عشيرته جميعاً أراد التحرش به فقال له:

– ويحك يا سيدي.. أتدخل بنفسك في معركة هؤلاء الكلاب الذين لا إحساس لهم، تقدم يا بنفوليو واستقبل الموت.

وراح يشهر سيفه، ولكن بنفوليو تمالك ولم يستسلم للغضب وانثنى يقول له في رفق:

– لم أكن مشتركا في شجارهم، ولكني إنما أردت أن أصلح بينهم فأعد سيفك إلى غمده أو هلم أعني على تفريقهم بالحسنى وتشتيتهم.

فصاح هذا محتدا:

– أتحدثني يا هذا عن الصالح. ما أمقت هذه الكلمة وأبغضها إلى نفسي إني لأمقتها كما أمقت جهنم. وأمقت كل مونتاجي على ظهر الأرض.. كما أمقتك أنت. فلنتلق أيها الجبان!

فلم يسع بنفوليو غير الإقبال على قتاله، واشتبكا بسيفيهما في معركة حامية. وما لبث أن وصل رجال من أنصار هؤلاء وآخرون من أنصار أولئك فاشتركوا في المعركة. وبينما كانت الملحمة قد اتسع نطاقها على تلك الصورة الموحشة إذ هرع إليهم جمع كبير من أهل المدينة مسلحين بالهراوات وآخرون بالمناجل والفؤوس. فصاح أحدهم:

– هيا اضربوهم حتى نصرعهم جميعا. ليسقط الكابوليتون. ليسقط المونتاجيون.

ولم يكن الموضع الذي جرت المشاجرة العنيفة فيه بعيداً من دار كابوليت، فما هي إلا لحظة حتى قدم الشيخ كابوليت عميد العشيرة بنفسه في قميص نومه ليرى ما الخبر وجاءت زوجه «لادي كابوليت» في إثره مروعة. فلما رأى الشيخ الحال على هذه الصورة صاح فيهم مغاضبا:

– ما هذه الجلبة التي أحدثتموها؟ آتوني حسامي لأريهم مضاربه.

فأمسكت السيدة كابوليت به قائلة:

- علام تطلب سيفاً.. قل عصا أو عكازاً.. فإن الأمر لا يحتمل أكثر من ذلك تأديباً.

ولكنه ظل يصرخ محتداً:

- قلت لكم علي بسيفي، فإني أرى الشيخ مونتاجو قادماً شاهراً سيفه في وجهي.

وجاء مونتاجو وزوجه، فصاح إذ رأى خصمه اللدود مناديا:

- إنك لوغد سافل يا كابوليت.

والتفت إلى من حوله، وكانوا قد أمسكوا به، فصرخ فيهم غاضبا:

- دعوني ولا يمسكن أحد بي، حتى أريه ما يستحق.

فتشبثت السيدة مونتاجو بذراعه، وأهابت به قائلة:

- لن أدعك تتقدم خطوة واحدة نحوه.

وصل أمير المدينة وحاكمها، وهو الأمير أسكالوس في حاشية من جنده وخدمه فخاطبهم جميعاً بقوله:

- ويحكم أهل الفتنة وأعداء السلام وملوثو السيوف الشريفة بدم الجار.. ألا تستمعون إلى ما أقول.. أيها الرجال، بل أيها الوحوش الضارية الذين تطفئون ظمأ غضبكم وحقدكم وأضغانكم من مسيل دمائكم ومسراه في أوردتكم وشرايينكم، والله لئن لم تلقوا أسلحتكم المشرعة من أيديكم الدموية الأثيمة لأعذبنكم عذاباً لم أعذبه أحداً من قبلكم. ألا كفوا أيها الأشرار واستمعوا إلى أميركم الذي هيجتم غضبه وأثرتم حنقه. يا أيها الشيخ كابوليت، ويا أيها الشيخ مونتاجو هذه هي المرة الثالثة التي كدرتما

فيها السلام العام في المدينة بمعارككما التي أولدها الحقد الكامن في صدوركم، حتى حملتم أهلها على ترك رزانتهم القديمة. والتخلي عن جمال وداعتهم ولين عريكتهم. والرجوع إلى عهود المحن الماضية، فانقسموا أحزاباً واستحالوا شيعاً، وآخرون منهم سرت عدواكم إليهم، فجعلوا يعكرون السلم ليفرقوا بينكم، ويشتتوا معارككم وملاحم أحقادكم وخصوماتكم، فلتعلموا جميعاً أنكم إذا عدتم إلى تكدير الأمن في المدينة على هذه الصورة فليس عندي لكم غير الموت عقابا، وإني اليوم لغافر لكم فانصرفوا بسلام.

واستدار نحو كابوليت فقال:

– وأنت يا كابوليت.. هلم سر معي، ولتأت أنت يا مونتاجو في الأصيل إلى دار القضاء في المدينة لإبلاغكما رغبتي في هذا الشأن، وأما الباقون فلينصرفوا ومن لم يفعل كان الموت عقابه.

فما تبقى أحد من الجماهير والسوقة والأنصار والأتباع من العشيرتين إلا انصرف مذعنا. وبقي الشيخ مونتاجو وزوجه وبنفوليو، فالتفت الشيخ إلى الفتى فقال له:

– نبئنا ما الذي جدد الشجار اليوم على هذه الصورة؟ ألا حدثنا يا ابن الأخ أكنت آمرها عند بدايتها؟

– كلا، ولكني حين وصلت إلى هذا الموضع وجدت خدم خصمنا مشتبكين في شجار مع خدمنا وأخرجت سيفي لأفرقهم وإذا بتيباليت الحاد الخلق الناري المزاج قد جاء مشرعا سيفه فجعل يتحداني بجارح الألفاظ وفوارس الكلم، وراح يهز رأسه هزة الخيلاء، ويضرب الرياح بسيفه فلم يجرحها إنما

صفرت الرياح صفيرها سخرية منه واستهزاء به، فلم أر بداً أمام تحديه وخيلائه وعجرفته إلا أن أستل حسامي منازلا له، وفيما كنا مشتبكين نتبادل الطعن والضرب إذ حضر رجال من أنصارهم ورجال من أنصارنا فاتسعت دائرة المعركة حتى وصل الأمير ففرق الجميع.

فجزعت السيدة مونتاجو أشد الجزع، وراحت تسأله قائلة:

- وأين روميو؟ أفلم تره اليوم؟ إني لأحمد الله على أنه لم يكن حاضراً في هذه المعركة.

فأجابها بنفوليو بقوله:

- لقد خرجت يا سيدتي من دارنا قبل أن تطل الشمس من نافذتها الذهبية المتوهجة في الشرق بساعة من الزمن، أريد الرياضة والترويح عن الخاطر خارج المدينة، فما كدت أبلغ الأكمة القائمة في الجهة الغربية منها، حتى رأيت ابنك يا سيدتي سائرا في تلك الساعة الباكرة من الصباح فيممت نحوه، ولكنه كان قد شعر بي فتسلل متواريا عن عيني في الغابة. ولما كنت عرفت من حالي أن أشغل الناس بالا أكثرهم للعزلة طلبا، وأشدهم للوحدة التماسا، لم أشأ اللحاق به، وتركتني لخواطري، وخليت بينه وبين الفرح بفراره.

فقال أبوه:

- يا عجبا. لست أدري ماذا أصابه. فلكم من مرات قد شوهد فيها مع البكور في تلك النواحي يزيد بدمعه ندى الصبح، ويجمع إلى السحب غمائم من حر زافراته، ومنبعث تأوهاته، ولكن ما تكاد الشمس ترفع الستار في المشرق عن مضجع الشفق حتى يعود أدراجه متسللا إلى البيت

حزينا مهموما فيحتبس في غرفته ويغلق نافذته حتى يطرد عنها ضياء النهار أشعته، ويصطنع ليلاً كالليل في ظلمته، ولا شك عندي في أن هذه الحال تنذر بسوء وتنطوي على خطر، إذا لم يزل النصح الشديد أسبابها ويكشف ما وراءها من سر وخبر.

فقال بيفوليو:

– وهل تعرف يا عماه السبب؟

فأجابه الشيخ:

– كلا، لست أعرفه.. في وسعي أن أتعرفه منه.

– وهل سبق أن سألته عنه؟

– نعم، ودفعت بكثير من الأصدقاء إلى مفاتحته، ولكنه أبى إلا أن يكون لنفسه ناصحاً، ولما في صدره مشيراً، وإن لم أدر أهو الناجح الصادق والمشير الأمين، ولم نستطع أن نسبر غوره أو نكشف ما خفي من أمره، لأنه مخلد إلى الوحدة، دائم العزلة، حتى لكأنه الزهرة الجميلة راحت حشرة مؤذية تأكل نوارها، وتسري في كمها، حتى لا تنشر أوراقها الجميلة في الهواء أو تهدي حسنها إلى الشمس والضياء، ولو أننا عرفنا سر اغتمامه وباعث أشجانه، لكانت لهفتنا على علاجه وشفائه لا تقل عن رغبتنا في معرفة علته واستقصاء دائه.

وفيما كانوا يتحدثون إذ لاح شبح روميو من بعيد؛ فأومأ نحوهم، فصاح بنفوليو قائلا:

– ها هو ذا قادم إلينا فأرجو كما أن تعودا إلى البيت حتى أخلو إليه وأكشف خافيته.

فأجابه الشيخ بقوله:

- أدعو لله أن يوفقك يا بني في كشف حقيقته.

والتفت إلى زوجه فقال:

- هيا بنا يا سيدتي..

وما كادا ينصرفان حتى أقبل روميو فبادره بنفوليو محيياً.

- طاب صباحك يا ابن العم؟

فأجابه روميو مبهوتا:

- أترى النهار قد بكر إلى هذا الحد؟

- لقد آذنت التاسعة.

- يا عجبا! ولكن كذلك هي ساعات الأحزان تلوح طوالا أليس هذا أبي الذي رأيته منصرفا من هنا مسرعا؟

- بلى هو. ولكن أي حزن جعل الساعات في عين روميو تلحن طوالا؟

فأجاب روميو وهو حزين متألم:

- لم يجعلها طوالا إلا الحرمان مما يجعلها تبدو قصاراً.

- أفي الحب وقعت؟

- بل خارجه كان انحداري.

فعجب بنفوليو لجواب صاحبه وقال:

- ماذا تعني يا ابن العم بهذه الكلمة الغامضة؟

- لقد عنيت بما قلت خارج الحب، حرماني من مرضاة التي أحب.

فأطرق بنفوليو لحظة ثم انثنى يقول:

- وا أسفاه على الحب يلوح في مظهره رفيقاً جميلا، فإذا ما جرب واختبر كان طاغيا خشناً مستبداً، وساء مصيراً.

- بل يا أسفاه، أن ترى الحب معصوب العين محجوب البصر، ثم هو مع غشاوته، المبصر مسالكه إلى غايته، ودروبه إلى مشيئته ورغبته. ولكن أين نتناول طعام غدائنا اليوم؟ يا ويحي! لقد جرت معركة هنا منذ برهة فلا تحدثني بنبئها فقد سمعت بها مفصلا وافيا. ولكن كيف يصطلح على النفس التفكير في الحب والبغض معا.. وعلام إذن تكون أيها الحب المستعر المصطخب. وعلام إذن تكون أيها الكره المحبب؟ أيها الحب، بل يا أيها الشيء الذي من لا شيء تولد وتنشأ، أيها العبث الرهيب واللهو والخطر. يا مجموعة البلايا والآلام والهموم تلوح في صور جميلة، وتبدو في أشكال محببة وألوان زاهية، يا رصاصا في خفة الريش، ودخانا قاتما ولكن في مثل بياض الصبح، وناراً مشتعلة في مثل برودة الثلج، ويا صحة كالمرض، وعافية كالسقام، ويا نوما كاليقظة، وحقيقة كالخيال! هذا هو الحب الذي أحسه، أو هذا هو الإحساس الذي لا أجد فيه حباً.. أو لست تضحك مني أيها الصديق؟

- كلا يا ابن العم، بل أبكي لك.

- يا لك من كريم، ولكن ما الذي يبكيك لي؟

- لاشتداد الحب بقلبك، ووطأته على فؤادك.

- هكذا هو الحب في عداوته، وهكذا هو الحب في طغيانه. ولكن حسبي ما في صدري من مزدحم أحزاني فلا تزدها أنت بأحزانك. فإن هذا الحب

الذي أبديته نحوي إنما يضيف حزنا إلى ما فاض من أحزاني. إن الحب دخان يتصاعد ويرتفع من أبخرة الزفرات. فإذا تطهر استحال نارا وشررا في أعين المحبين، وإذا ما عوكس وأغضب انقلب بحراً تغذيه الدموع، وتصب فيه العبرات، وألا فليت شعري ما هو الحب أن لم يكن جنونا عاقلا. أو عقلا هو أقرب إلى الجنون، أو هو مر كالعلقم وحلو كالعسل. وداعا يا ابن العم.

فصاح بنفوليو به وقد رآه يهم بالانصراف في طريقه:

- على رسلك فإني سائر معك، وإلا فإذا أنت تركتني ومضيت كنت لحبي لك ظالماً وعلى مودتي جائراً.

فانتبه روميو من ذهوله وراح يقول:

- يا ويحي! لقد ضللت وذهب رشدي كأني لست هنا، وكأني لست بروميو، بل كأن روميو شخص آخر في موضع آخر.
- نبئني وأنت على هذه الحال من الحزن من تكون تلك التي تحبها؟
- كيف تريد ذلك وأنا في لوعتي وأنيني؟
- حسبك لا أنين.. ولكني نبئني في حب من تكون؟
- إنك فيما تطلبه مني الذي يطلب من المريض أن يكتب وصيته، والعليل أن يودع الحياة آخر توديع. ولكني مع ذلك قائل لك يا ابن العم ومنبئك أنني أعشق امرأة.
- لقد كنت قريبا من السداد حين تصورت أنك لا بد عاشق.
- يا لك من رام حسن الرماية. مسدد محكم السداد، والتي عشقتها فتاة

حسناء.

– إن الهدف الصالح الجميل، أسرع ما يكون إصابة.

فضحك روميو ضحكة مريرة وقال:

– أما في هذه الرمية، فقد أخطأت لأنها أبت أن تصاب بسهم الحب من كف كيوبيد، إذ قد أوتيت ذكاء «ديانا» وحكمتها، وبراعة ربة الصيد ومهارتها، فهي بمنجاة من سهام ذلك الوليد، عفافها سلاحها، ونقاؤها عاصمها من كل نبل طائش وسهم سديد، فهي لا ترضى في حرب الحب حصاراً، وتتحاشى لقاء الأعين المقتحمة والنواظر المهاجمة المشتعلة من وقدة الحب ناراً، ولا تفتح حجرها لتملأه من الإغراء ذهبا لامعا، فقيرة في المال غنية بالجمال، حتى ليموت الجمال معها حين تموت فلا يبقى له من بعدها في هذا العالم وجود.

وكان بنفوليو بالنساء قد اكتسب علماً وخبرة، فهو يعلم أن ليس منهن واحدة على رفض الحب تطيق صبرا، فقال:

– وهل أقسمت أن تعيش على الحب متبينا نفوراً؟

– نعم.. فهي بهذا الإباء تبدد الجمال تبديداً، لأنها بقسوة عفافها، وشدة فرارها من الحب وخوفها، سوف تقطع سير الجمال، في منحدره إلى الأجيال، فلا ينبت من بعدها حسن ولا تترك له من بعدها تعاقباً ولا توليداً.. إنها لمفرطة في الجمال، مفرطة في العقل والحكمة، جميلة حكيمة معاً إلى أبعد الحدود، وقد أقسمت لا تبين الحب، فأنا اليوم من هذا القسم حي أشبه بميت، وكأنما عشت لأقص عليك نبأي في الحياة، وقصتي في الموت.

– اسمع نصيحتي وحاول نسيانها أو انس التفكير فيها

فهز روميو رأسه هزة الحزين المتشكك وأجاب بقوله:

– إذن فلتعلمني كيف أنساها؟ وكيف تكون السلوى عنها؟

– بأن تطلق عينيك من إسارهما، وتتخير أفانين من الجمال غير جمالها.

فاستضحك روميو حزينا وقال:

– وهل يزيدني هذا إلا إيمانا بأن جمالها فوق كل جمال؟ إن جمال النساء اللائي نسميهن نحن حسانا ليس إلا أغشية وأقنعة على أديم أبدانهن ومعارف وجهوهن، فيخيل إلينا أنهن حسان وما هن من الحسن الحقيقي في كثير. إن الذي يصاب بالعمى ليس في إمكانه أن ينسى نعمة البصر التي فقدها وأضواء ناظره التي ارتد منها سليبا، إن جميع اللاتي نسميهن حسانا جميلات إنما يقال عنهن كذلك بالنسبة لها تفاوتا من بعدها وترتيبا. وداعاً أيها الصديق فلست على تعليمي كيف أنسى مستطيعا؟

ولكن بيفوليو لم يشأ أن يتركه وأصر على السير معه لمحاولة التسرية عنه وإقناعه بالتماس السلوى ومعالجة النسيان.

–٣–

وكان في فيرونا شاب من الأشراف يدعى الكونت "باريس"، وكثيراً ما كان يتردد على دار الشيخ كابوليت ويختلف إليه؛ ففي اللحظة التي كان فيها روميو قد حاول التخلص من ابن عمه بنفوليو ليلتمس العزلة والإخلاد إلى التفكير في حبه اليائس، كان الشيخ كابوليت قد التقى في طريقه عرضا إثر خروجه من قصر الأمير بالكونت باريس فسارا معاً يتحدثان، وساقهما الحديث إلى ذكر ما

كان من الأمير «إسكالوس» حاكم المدينة حين نشبت معركة الصباح، وما أصدره من القرار في شأن تكرار هذه المعارك المستمرة.

فقال الشيخ كابوليت للكونت باريس:

– إن مونتاجو مسئول أيضاً مثلي، والعقوبة علينا بالسواء، ولكني لا أظنه يشق علينا ونحن في هذه السن، ومركزنا في العشيرة كما علمت، أن نقطع دابر الفتنة ونعمل على استتباب السلام في المدينة.

فأجاب الكونت باريس بقوله:

– كلاكما عظيم القدر في قومه كبير السلطان، وإنه لما يؤسف له أن تكونا قد عشتما كل هذا الدهر الطويل على جفوة وعداء، ولكن نبئني يا سيدي ما رأيك في خطبتي التي عرضتها عليك من قبل؟

– ليس عندي ما أقوله إلا ما كررته ورددته، وهو أن ابنتي حدثة غريرة لا تعرف شيئا من أمور هذا العالم وأحواله، ولم تجتز بعد الرابعة عشرة من العمر فلا يصح أن نعدها قد نضجت واستوت لكي تكون عروسا إلا بعد انقضاء عامين آخرين.

– كم من فتيات أصغر من هذه سنا قد أصبحن اليوم أمهات ناعمات هانئات؟

– ولكن كم من فتيات بكر أهلهن بزواجهن فلم يلبثن بالزواج الباكر أن ذوين وتشوهن؟ ولقد سلبتني الحياة كل آمالي فلم يعد لي سواها من أمل، فهي اليوم عزائي الوحيد من دنياي، على أنه ليس من بأس في أن تتحبب إليها أيها الكونت المهذب الرقيق الحاشية، وتعمل على اكتساب قلبها والتودد إلى نفسها. فإن إرادتي ليست سوى جزء من رغبتها ورهن

موافقتها ورضاها، فإذا هي وافقت بمحض اختيارها، جاء إقراري على إثر مشيئتها تابعا، وكان ضم صوتي إليها استكمالا وقبولا نهائياً قاطعا، وسأقيم الليلة في داري حفلة سنوية اعتدت في كل عام إقامتها، وقد دعوت إليها أصدقاء عديدين ممن آنس إليهم، وأخصهم بمودتي. وإني لمرحب بك أكرم الترحيب إذا أنت جئت لأنك ستزيد الحفلة رونقا بحضورك وبهاء، وستحتوي داري المتواضعة في هذا المساء، كواكب ونجوما زاهرة من كوكب الأرض ومصابيحها، يحلن الليل نهاراً بما يشعن في جوانبه من السناء ووهج الضوء، ممن يجد الشباب المتقد الجوانح في الجلوس إليهن كل طريف من الفرح وكل بديع، إذا أقبل الربيع، وأحسبك وجدت الليلة في دارنا كل السرور بمحضرك وسط الغيد الحسان، شبيهات الزهرات في الأكمام، فلتشنف بأصواتهن سمعك، ولتجل من جمالهن عينيك، ولتحبب منهن أحقهن بحبك، ولئن كانت ابنتي في العدد واحدة، فهي في الاعتبار والحساب الفذة المتفردة.. والآن هلم نذهب معاً.

وما كادا ينصرفان حتى مر بهذا الموضع ذاته، خادم من دار الشيخ كابوليت، يحمل رقاعا بأسماء المدعوين لتوزيعها على دورهم لحضور حفلة المساء، ولم يكن الخادم يعرف القراءة؛ فحار في أمره، وجعل يقوله لنفسه:

– لقد قال لي اذهب وزع هذه الأوراق على أصحابها، ولقد قيل قديما إن كل إنسان خلق لما يسر له، فالأسكاف لأحذيته، والحائك لمقصه وخيطه، والصياد لسنارته وشبكته، والرسام لألوانه وريشته، ولكني أرسلت إلى أناس لا أعرف أسماءهم، فما من حيلة أمامي غير أن أفزع إلى القارئين الكاتبين، والحمد لله هاأنذا أرى قوما قادمين من هذا الطريق.

وكان بنفوليو وروميو قد وصلا إلى ذلك المكان، بعد أن أصر بنفوليو

على ملازمة ابن عمه لمحاولة إقناعه بالسلوى عن حبيبته المتأبية عليه النافرة منه. وكان لا يزال يقول له:

- ويحك يا رجل. لا يطفئ النار المتأججة إلا نار غيرها. ولا يخف ألم إلا بألم مثله أو أشد منه إيلاما، وأنت إذا درت حتى أصابك الدوار من كثرة اللف على نفسك والدوران فلا تلبث أن تفيق بدورة راجعة، وقد يعالج الحزن البالغ يوما بحزن يشابهه. فخذ يا صاح سما جديداً لعينيك ليتحرك السم القديم الراسب فيتلاشى ويموت.

فضحك روميو ساخراً وهو يقول:

- أحسب «اللزقة» في ذلك أفضل دواء.

فقال بنفوليو مندهشا:

- في أي شيء تقصد؟

- في علاج ساقك المكسورة.

فغضب بنفوليو وتألم قائلا:

- ويحك يا روميو هل جننت؟

- لم أجن، ولكني مشدود الوثاق أكثر من مجنون محتبس في سجن، متروك بلا طعام، مضروب بالسياط، معذب ذليل مسكين.

وعند ذلك تقدم الخادم فحيا ثم قال:

- أتقرأ يا سيدي؟

- نعم.. قصة تعسي وقسمة بؤسي وآلامي!.

- وهل يحتاج علمي يا سيدي إلى كتاب؟ ولكني مع ذلك إنما طلبت إلى

سيدي أن يقرأ لي شيئاً يراه بعينيه ولا يحسه بخاطره.

– إن كان لي بالكلمات والحروف واللسان علم.

– أتجد فيما تقول يا سيدي.. عنك ولا عليك يا سيدي.

وهم الغلام بأن ينصرف، ولكن روميو استوقفه صائحا به:

– على رسلك يا هذا. إنني أقرا. فهات ما عندك لأقرأه لك.

فدفع الخادم بالقائمة إليه؛ فراح روميو يقرأ الأسماء: «السنيور مارتينو وقرينته وبناته، والكونت أنسلم وشقيقاته الجميلات أرملة اللورد فتروفيو، السنيور ملاشنتيو وبنات أخيه، ومركوشيو وشقيقه فالنتين عمى كابوليت وبناته ابنة أختي الحسناء روزالين، والآنسة ليفيا والسنيور فالتيو وابن عمي تيبالت ولوسيو والحسناء هيلانة».

وعقب روميو بعد قراءة الأسماء بقوله:

– إنه والله لحفل باهر، ولكن خبرني في أي مكان سيكون اجتماعهم؟

فأجابه الخادم قائلا:

– فوق؟

فلم يفهم روميو مراده. قال:

– سألتك أين؟

– إلى العشاء في دارنا.

– دار من؟

– دار مولاي.

فضحك روميو من أجوبته وقال:

– لك حق. كان أولى لي أن أسألك عنه أولاً.

– إني مجيبك عليه قبل أن تسألنيه. إن مولاي هو الشيخ السيد الغني العظيم كابوليت، فإذا لم تكن من عشيرة مونتاجو فتفضل عندنا لتشرب كأسا من النبيذ.

وتناول الخادم الأوراق ومضى لشأنه. وما كاد يذهب حتى أقبل بنفوليو على ابن عمه يقول:

– إلى هذه المأدبة السنوية ستذهب الحسناء روزالين التي شغفتك حبا. وسيحضرها حسان فيرونا وغيدها الفاتنات. فما عليك إلا أن تحضرها وتروح بعين منصفة بينها وبين اللاتي سأريكهن من الحسان والملاح الخرد العين وأنا الكفيل لك بأن نتبين أن طائرك ليس سوى الغراب قبحا إذا قيس بحسان الطير والعصافير.

فاستضحك روميو قائلا:

– إن كانت عبادة عيني للجمال تنقلب كاذبة فلتستحل الدموع نيرانا، ولتحرق الأعين وإن شرقت يوما بدمعها أنها قد أرادت خداعا ومينا وبهتانا. يا عجبا وهل في الدنيا حسناء أجمل ممن أحب حسنا وفتنة. إن الشمس البصيرة ما طلعت على أجمل منها من خلق الله عوالم وأكوانا.

– إنك إنما رأيتها حسناء لأنه لم يكن ثم حسناء أخرى بجانبها قريبة، فاستوت لديك في العينين حلوة فتانة، ولكن تعال ضع في إحدى هاتين الكفتين البراقتين الزجاجتين حسناءك وفي الأخرى سواها، ممن سوف أريكهم في الوليمة أسراباً حساناً، فإنك واجدها قد خفت ميزاناً، وقد رجحن هن في

الموازين.

– إني إلى المأدبة لذاهب، لا لكي أرى الملاح اللاتي ستريني وجوههن، ولكن لكي أستمتع ببهاء التي غادرتني من الفؤاد سليبا

ففرح بنفوليو باستجابته أخيرا إلى مقترحه، وراح يقول:

– إذن هلم بنا لنستعد لحضور الوليمة في هذا المساء.

– ٤ –

كانت دار الشيخ كابوليت – في ذلك المساء – قد أخذت زخرفها وازيَّنت للحفلة المنتظرة والوليمة المرتقبة، وقبل أن يحل الموعد المضروب لابتدائها، جلست السيدة كابوليت في إحدى حجراتها تتحدث إلى مرضعة ابنتها جولييت حديثاً طويلا. وقالت حين استفاض حديثهما:

– وأين جولييت الساعة؟ اذهبي فنادها إلينا.

فأجابتها المرضعة مبهوتة:

– يا الله يا سيدتي إنها لا تزال حدثة كالحمل الوديع. بل عصفورة جميلة في العش لم تطر.. يا عجبا.. أين تراها قد ذهبت.. يا جولييت؟!

وما هي إلا لحظة حتى أقبلت الفتاة وقالت:

– من هذا الذي ينادي؟

– والدتك تريد أن تتحدث إليك.

– أماه. ها أنا في مشيئتك؟

فأنشأت السيدة كابوليت تقول:

– إليك ما أريد.

ولكنها تمهلت ولم تزد إذ استدارت نحو المرضعة فقالت:

– انصرفي لحظة فإني أريد أن أتحدث إليها على انفراد.

فمشت المرضعة لتغادر الحجرة، ولكن السيدة كابوليت عادت تناديها:

– لا تذهبي فقد تذكرت أن لك الحق في حضور مجلسنا وسماع حديثنا فقد عرفت ابنتي منذ طفولتها.

فصاحت المربية قائلة:

– يا الله يا مولاتي. إن في إمكاني أن أنبئك بتاريخ مولدها بتعيين اليوم والساعة أيضا.

– لم تبلغ بعد الرابعة عشرة.

فصاحت المرضعة تقول:

– أي نعم.. وإني لأراهن بخلع أربع عشرة سنا من أسناني، وإن لم يبق لي منها غير أربع، على أنها لم تتمهن إلى الآن. كم بقي على أول آب «أغسطس»؟

– أسبوعان وبضعة أيام.

– سواء بالزوج أو بالفرد عندما يحل أول آب تتم الرابعة عشرة، فهي من عمر ابنتي سوزان رحمة الله عليها فقد قبضها الله إلى جوره إذ كانت أكرم على الله من أن تعيش بجواري وعلى كل حال حين تحل ليلة أول آب تكون جولييت قد أتمت الرابعة عشرة. أما عن زواجها.. فلست أنسى إلى الآن أن أول كلام عنه كان من إحدى عشرة سنة، وهي السنة التي حصل

فيها الزلزال، ولن أنسى ذلك اليوم ما حييت فقد كنا نريد أن نفطمها فدهنت حلمة ثديي بقليل من المر وكنت ساعتها جالسة في الشمس تحت برج اليمامة، وكنت أنت وسيدي غائبين في «مانتوا»، يالله!. إن لي عقلاً جيداً وذاكرة قوية.. فلما شعرت الطفلة بالمر الذي دهنت لها الحلمة به غضبت من الثدي «ونزلت» ضربا فيه ولم تعد بعد ذلك إليه وعندئذ رأيت برج اليمام يهتز إلى التحرك من مكاني حتى لا يسقط فوق رأسي. أي والله كان ذلك من إحدى عشرة سنة. وكانت يومئذ قد بدأت تقف على ساقيها وحدها وكانت تحاول الجري في الحقل والركض، حتى لقد سقطت في اليوم السابق فجرحت جبهتها، وكان زوجي رحمة الله عليه رجلا يحب الضحك والمزاح فتناول الطفلة بين يديه وجعل يقول لها: «أهكذا تقعين على وجهك يا هذه، إنك غداً حين تعقلين سوف تقعين على ظهرك. أليس كذلك يا جول..؟». ومن العجب أن الطفلة الجميلة كفت في الحال عن البكاء وقالت: «آه أي هو كذلك». وها هي النكبة يا للعجب قد أوشكت أن تتحقق: أي والله لن أنسى ولو عمرت ألف سنة قول المرحوم زوجي: «أليس كذلك يا جول..؟!». وجواب الطفلة الجميلة: «آه».

فصاحت السيدة كابوليت بها وقد أغضبتها هذه الثرثرة وخشيت أن تستطيل:

- كفى، كفي، واسكتي بالله عليك.

ولكن المرضعة عادت تقول:

- أي والله يا مولاتي، وإني لأضحك كلما تصورتها قد كفت عن البكاء وقالت آه، مع أن جبهتها كانت قد ورمت ورما شديداً من الوقعة المؤلمة،

ولكنها كفت عن البكاء حين سألها المرحوم زوجي ذلك السؤال.

فاستحت جولييت وقالت:

- لتكفي أنت أيضاً يا مرضعتي عن هذا الكلام المعيب.

- كففت وسكت يا ابنتي، لقد كنت والله أجمل مولودة أرضعتها من ثديي وأذقتها لبني، ولقد كنت أتمنى من الله شيئاً واحداً، وهو أن أعيش حتى أراك متزوجة وها هي ذي رغبتي قد تحققت.

وكانت السيدة كابوليت طيلة هذه الفترة حائرة لا تدري كيف تمهد لحديثها، فلم تكد ترى المرضعة قد أشارت إلى الزواج في ختام كلامها وثرثرتها المزعجة حتى أخذت خيط الحديث من هذه الناحية فقالت:

- هذا هو ما كنت أريد أن أتحدث عنه. خبريني يا ابنتي جولييت ماذا تقولين في الزواج؟.

فأجابت الفتاة قائلة:

- هذا شرف لم أحلم قبل الآن به.

فما كادت المرضعة تسمع جواب الفتاة حتى انثنت تعقب عليه بقولها في فرح ظاهر وفخر بالغ:

- أتقولين أنه شرف؟ والله لو لم أكن أنا التي أرضعتك من لبني لقلت أنك رضعت الحكمة والعقل من ثدي طفولتك حين كنت في المهد صبية

واسترسلت السيدة كابوليت في حديثها قائلة:

- أريد يا ابنتي أن تفكري الآن في الزواج ملياً؛ فقد رأينا فتيات من بنات فيرونا أصغر منك سنك هذه، وأنت لا تزالين عذراء لم تتزوجي بعد، وجملة

القول يا ابنتي أن الشاب باريس الشجاع الشهم المقدام يلتمس الاقتران بك ويتطلع إلى الفوز برضاك.

فصاحت المرضعة تقول:

- ولم لا؟ إنه شاب في غاية الجمال. شاب لم تحو الدنيا له مثيلا. شاب من الشمع. شاب أكثر حسنا وجمالا.

واستأنفت أمها قائلة:

- إنه فتى لا تخرج رياض فيرونا وبساتينها إذا الصيف حل، زهرة أجمل منه ولا أفتن بهاء.

وعادت المرضعة تصيح:

- حقا إنه زهرة. أي والله إنه لزهرة حقا.

ومضت السيدة في إغرائها تقول:

- فما رأيك يا ابنتي في هذا الفتى النبيل؟.. أترتضين حبه وتتقبلين القرآن به؟ لسوف ترينه الليلة في مأدبتنا، فلتقرأي في وجهه حديث نفسه.. إنك لواجدة في صفحته أسطر الفرح مكتوبة ببراعة الجمال، وافحصي سائر تقاطيعه وجملة معارفه ومعالمه لتري كيف يجتمع منها الرضى ويتألف من تناسبها وتقاسيمها القبول والانشراح، وما يغيب عنك فهمه من ذلك الكتاب الجميل تجدين شرحه على هامش عينيه مسطوراً، إنه والله لكتاب حب قيم ثمين، وإنه لمحب غير مقيد، أو كتاب لم يجلد، فلا يعوزه لكي يستكمل البهاء، ومن الرونق يزداد ويستمد، غير الغلاف، مهما اقتضى وكلف. وإذا كان السمك يعيش في البحر مختفيا، فلا عجب أن يخفي الحسن الظاهر حسناً مضمراً وجمالا باطنيا لا ظاهراً. وإن هذا الكتاب في

جماله ليجمع إليه المجد في روعته والمال العريض في خزائنه، والنشب الكثير في حوزته، فإن رضيته يا ابنتي، شاركته في كل ملكوته، وأنت بالظفر به تكثرين ولا تقلين.

فصاحت المرضعة قائلة:

– أي والله لا تقلين بل تزدادين كثيراً وتربين، فإن النساء بالرجال يزددن.

وقالت السيدة كابوليت:

– فما قولك يا ابنتي باختصار. هل في وسعك الميل إلى باريس والرضوان بحبه؟

فأطرقت جولييت طويلا، ثم أجابت قائلة:

– سوف أرى هل أميل، لو أن الرأي إلى الميل حافز مستميل، ولكن موافقتكما هي التي ستشجعني وتهديني في هذا السبيل.

وفي تلك اللحظة دخل أحد الخدم يعلن أن المدعوين قد حضروا وأن كل شيء قد أعد؛ فقالت السيدة كابوليت:

– حسنا فسنحضر حالا.

والتفتت إلى ابنتها فقالت:

– يا جولييت لا تنسي الحفاوة بالكونت دي باريس.

وتلتها المرضعة قائلة:

– اذهبي يا بنية التمسي ليلة سعيدة تؤدي بك إلى أيام هناءة ورغد وعيش نضير.

-٥-

فرح بنفوليو بقبول روميو فكرة حضور الوليمة السنوية في دار آل كابوليت، وافترقا على موعد باللقاء قبل الحفلة للذهاب معا. وكان مركوتيو من أصدقاء روميو قريبا لأمير فيرونا وقد دعي إلى الحفلة مع كبار المدعوين. فلما أذن موعد الوليمة تلاقى ثلاثتهم في الطريق وكانوا في ثياب متنكرة وأقنعة تحجب الوجوه. وتوافد في اللحظة ذاتها مدعوون آخرون يريدون قصر كابوليت تتقدمهم المشاعل وتستبقهم الأنوار. وكان روميو قد تنكر في زي حاج إلى بيت المقدس وتلثم بلثام. فلما دنوا من القصر تردد روميو لحظة وانثنى إلى صديقه فقال:

– هل ندخل بلا كلام ولا اعتذار، أم يجب أن نقول كلمة نتشفع بها لحضورنا ونستغفر من تأخيرنا.

فاجتذبه بنفوليو قائلا:

– لم تتأخر كثيراً فلا ضرورة للكلام ولا حاجة إلى الاعتذار.. مالنا وللمقدمات وما جئنا بك لتكون «كيوبيد» متنكراً في زي التتار ولا نحتاج إلى تمثيل وتلقين ومناظر، فليأخذونا على ما هم آخذونا، ولندخل في غير احتفال أو اهتمام كثير.

– أعطوني مشعلا فإني لا أطيق هذه الهرولة في جنح الليل وما أحوج المغموم القائم النفس إلى ضوء يستضيء به.

فراح مركونيو يمازحه قائلا:

– استعد يا صاح لترقص في الحفلة الليلة.

فأجابه روميو بحزن:

– كلا. فما الرقص إلا لمثلكما. لقد جئتما في حذاء خفيف ونعل لين، وكيف يرقص من كانت نفسه من رصاص فلا يستطيع نقل قدميه ولا تحريك ساقيه.

فصاح مركوتيو به:

– أنت عاشق يا روميو فاستعر من كيوبيد جناحيه وحلق بهما في أفق الهوى عاليا.

– لقد جرحني كيوبيد بسهم، فكيف بجناحيه أحلق وهل لمثلي أن يطير، وأنا بحمل الحب مثقل الكاهل أنوء بعبئه الأليم.

فصاح مركوتيو قائلا:

– يا عجبا للحب في تناقضه، شيء رقيق ولكنه ظالم جائر

– أفتحسب الحب شيئاً رقيقاً؟ كلا والله إنه لخشن جاف عنيف صاخب يخز كالشوك وخزا.

– إذا خشن الحب فاخشن له، ولتخزه على وخزه فإنك إن تفعل تنتصر عليه. آتوني لثاما أتلثم به وأنا الكفيل لكم بأن ألاقي الحب وجها لوجه أو قناعا لقناع، وليس يهمني بعد ذلك عيب في الخلقة يبدو ولا قبح ينكشف للعين الفضولية أو النظرة المتفحصة فما فاز باللذة غير الجسور.

فصاح بهما بنفوليو:

– هيا بنا ندخل فلن يلبث كل رجل في الحفلة إذا رآنا أن يستوي على ساقيه احتراما لنا وترحيبا بنا.

قال روميو:

– ولكن أعطوني مشعلا استضيء به. ودعوا إخوان العبث يطئون الشوك بأقدامهم، ويجازفون في الهوى بنفوسهم، أما أنا فإني بقضاء الحب مدان، وفي حقل الهوى والمهرجان، حامل مشعل يقنع بالنظر ولا يشارك في الميدان، أنا انتهبت، وفي قبضة الحب وقعت.

فقال مركوتيو:

– تعال بنا نخرجك من حمى الحب التي غرقت فيها حتى أذنيك، هيا فإننا بهذا التلكؤ والتردد نحرق ضياء النهار.

فأجاب روميو:

– أتتحدث عن ضياء النهار ومن حولنا ظلمة.

– إنني أعني أننا بهذا التردد نبدد أضواء مشاعلنا عبثاً ونحرق لهبها بلا فائدة، كإشعال المصابيح في النهار الوضاح.

– خذ يا صاح منا المعنى الحسن، والنية الطيبة لأن حكمنا إنما يصدر عن نيتنا كما يصدر عن تفكيرنا وحكمتنا.

فأجاب روميو:

– إذا كنا حسنى النية في ذهابنا إلى هذه الحفلة المقنعة، فإن الحكمة ليست في ذهابنا.

– وهل لي أن اسأل لماذا؟

– لقد رأيت الليلة حلما.

– وأنا كذلك رأيت حلما.

فسأله روميو:

- وماذا كان حلمك أنت؟
- ولكن كثيراً ما يكذب الحالمون
- بل كثيراً ما تصدق الأحلام.

فانشأ مركوتيو يروي حلمه. قال:

- رأيت فيما يرى النائم ملكة الجن معك. وقد استحالت رفيقة لا تزيد عن حجم فص من حجر كريم على سبابة عملاق يحيط بها جمع من الدقائق والذرات، وقد امتدت سبابته على أنوف الرجال وهم نيام، وكأنما ذيلها من أرجل العناكب وجناحاها من الجراد وأغطية تحرها من خيوط القمر والسوط في يدها، من عظام لجنادب مقبضة، ومن دقائق الخيوط حول بعوضة صغيرة سوداء الرداء، لا تزيد في حجمها عن نصف حجم الدودة أو هي أدق، ومركبتها جوف قطعة من قشر البندق، وهي في هذا الموكب تسير إذا الليل عسعس وهدأت الطبيعة. وسكن كل حس. مسافرة في عقول العشاق وألبابهم مخترقة أخلاد الشباب ومشاعرهم، فيحلمون بالحب، كما تمر على أقدام محترفي التملق في البلاط وحاشية الملوك الغيد، فيحلمون بالركوع والسجود، وعلى أنامل المحامين فيحلمون بقبض الأتعاب من موكلهم الجديد، وعلى شفاه الحسان والغيد، فيحلمن بالقبلات تكراراً بعد ترديد. وكثيراً ما تضع ملكة الجن في غضبها على الشفاه المعسولة ما يزيدها لهيبا ويحيل دفئها حاراً كالوقود، وإن ملكة الجن لتركض أحياناً فوق أنف خادم في بلاط، أو بعض الحاشية في خدمة صاحب سلطان، فيحلم بأه يشم ريح خلعة طريفة أو منصب جديد، وأحياناً تأتي بسوطها فتمس به أنف كاهن أو عالم ديني فيحلم حينئذ بمعاش أو وقف أو مزيد في الموارد بعد مزيد وأحياناً تمر فوق عنق فارس

محارب، فيحلم بقتل أعدائه من الأجانب، وبالسيوف مشرعات من كل جانب، وبأفانين الحرب من كل خدعة ومكمن ومباغت وحليف ومصاحب، وبالطبول تدق في أذنيه، يفتح على دقها عينيه، ولكنه لا يلبث أن يذهب في النوم غير وجل ولا متهيب. تلك هي الملكة التي تضفر معارف الخيل في سكون الليل والعجوز التي تحتضن العذارى وهن نائمات لتعلمهن كيف يتحملن العناقات ويألفن الاحتضان ويجئن بالبنين والولدان..

وكاد مركوتيو يسترسل في حديثه هذا لولا أن ضاق روميو ذرعا به فصاح قائلا:

- على رسلك يا مركوتيو على رسلك.. أنك تتحدث عن لا شيء.

- هذا صحيح فإنني أتحدث عن الأحلام. وهي بنات من صنع العقل والخاطر، لا تلدها غير تصورات وأوهام أرق في مادتها من الهواء! وأشد تقلبا من الرياح، التي تهب الساعة على صدر الشمال المتجمد، وتعود مغضبة متولية بوجوهها نحو الجنوب البليل تقطر الندى.

فصاح بنفوليو به متبرما:

- إن هذه الرياح التي تتحدث عنها قد أبعدتنا عن أنفسنا، وقد حان موعد العشاء، وسوف ندخل المأدبة متأخرين كثيراً عن الميعاد.

فقال روميو:

- بل أخشى أن نكون باكرين أكثر مما ينبغي، فإن نفسي تحدثني بأن قدراً في السماء معلقا على حفلة الليلة وحضورنا إليها وكأن هاتفا من صدري يهتف بي أن نهاية حياتي ستكون بموت قبل الأوان ولكن لتكن مشيئة الله

فهو الذي يوجه سفينتي ويدفع في زاخر الحياة بزورقي. فهيا بنا أيها الرفاق.

فصاح بنفوليو من فرط الفرح: هيا بنا.

-٦-

وكان قصر كابوليت في تلك الساعة مزدحما بالمدعوين، وكان الخدم في قاعة الطعام قد أعدوا المائدة الكبرى، وهيأوا المقاعد واحتفلوا بزينة الخوان وصف الصحاف مختلفة الألوان. وفي قاعة الاستقبال جلست فرقة من الموسيقى ترتقب اللحظة المناسبة للبدء بالعزف وتشنيف الأسماع. وما هي إلا لحظة حتى امتلأت القاعة بالمدعوين والمدعوات من كبار القوم وحسان المدينة وغيدها الفاتنات. وأقبل الشيخ كابوليت وجولييت ابنته وأفراد البيت وأبناء العشيرة يصافحون الضيوف ويحيون المدعوين ويبالغون في الحفاوة بهم والترحيب بقدومهم. وأنشأ الشيخ كابوليت يخاطب ضيوفه قائلا:

- مرحبا بكم أيها السادة. إن الغيد الملاح المستويات السوق السليمات الأقدام سيراقصنكم. الله. الله لكن يا سيداتي المليحات. أيكن الليلة على الرقص متأبيات ومن الحلبة نافرات. أفتأباه ذات الدلال، وتجعل الرفض بعض أدلة الخفر والجمال؟.. ولكن يميناً إنها لذات عيب في قدميها، أو عقرة في أصابع رجليها.. مرحبا مرحبا أيها السادة، قديماً كانت لي أيامي وجولاتي وإقدامي.. ولقد لبست قبلكم لثامي، وهمست في أسماع الغيد كلامي، وجعلت الوشوشة والمخافتة بأحاديث الحب في آذانهن دأبي وغرامي. وقد ولى زماني. نعم ولى زماني.. فمرحبا بكم أيها السادة اليوم لكم. وهيا أيها الموسيقيون اعزفوا، وليفسح المكان لحلبة الحسان. هيا يا

بنات إلى الرقص زرافات..

وابتدأ العزف وأخذ الرقص سبيله، وانثني الشيخ كابوليت إلى الخدم ينادي:

- مزيداً من الأنوار أيها الأنذال الأشرار.. وأقيموا الموائد بعضها فوق بعض وأطفئوا المواقد، فإن الحر في القاعة قد اشتد. هذا يوم جميل. ولهو طاب عبا ونهلا، وجاء وافيا مستكملا. هيا يا شباب إليه. وتعال أنت يا ابن العم كابوليت نجلس معا، فأنا وأنت قد فتنا أيام الرقص وفاتتنا، وجاوزنا عن المرح وتجاوز هو عنا. فكم تظن من الدهر انقضى على آخر عهدنا بلبس اللثام والأقنعة؟

وكان ابن عمه هذا شيخا مثله أدبر العمر به. فقال:

- والله أظنها ثلاثين سنة.

فصاح رب البيت مبهوتا من هذا التقدير المبالغ فيه:

- كلا.. كلا.. يا أخي. ليس إلى هذا الحد، لقد كان ذلك من ليلة زفاف لوسنشيو، وسوف تكون المدة حين يحل عيد العنصرة خمساً وعشرين سنة. لقد كنا في ذلك الحين نتلثم ونضع الأقنعة، ونرقص ما شاء لنا الهوى أن نرقص.

فقال الشيخ الآخر:

- كلا.. كلا.. لقد كان أكثر من ذلك.. إن ابنه أكبر من ذلك سنا. إنه اليوم في الثلاثين.

ولكن الشيخ كابوليت لم يقتنع وإنما جادله قائلا:

- لا تقل ذلك يا ابن العم إن ابنه كان قاصراً من سنتين.

وكان الرقص قد حمي في تلك اللحظة، واختلط الشباب بالغيد، وضجت المعازف بالتغريد، بينما ظل روميو في ناحية ينظر ويتأمل، ومر به أحد الخدم في تلك اللحظة فاستوقفه قائلا

- من تكون تلك الغادة التي ظفر بيدها إلى المرقص ذلك الفارس الذي يلوح هناك؟

فأجابه الخادم:

- لست أعرف يا سيدي.

- يا الله.. إنها لتعلم المشاعل كيف تزداد ضياء كأنها على خد الليل أشبه بدرة يتيمة على قرط في أذن زنجية حسناء. جمال أسمى من أن يبتذل للدنيا، وحسن أغلى من أن يكون في الأرض.. تلك يمامة بيضاء وسط غربان، لا حسناء بين أتراب حسان.. وحين ينتهي دور الرقص سوف ألاحظ أين تجلس، فأذهب لأمس كفها وألمس، فإن البركة كلها لكفي الخشنة في لمسة تلك اليد الحسناء. أيتها العين أقسمي هل أحب القلب قبل الآن؟ فو الله ما شهدت الجمال الحقيقي إلا الليلة في هذا المكان.

وكان بين الحضور شاب من أقارب رب الدار يدعي تيبالت، شديد البغض لعشيرة مونتاجو، حاد الخلق، سريع الغضب نزاعا إلى الشجار. واتفق أن كان قريبا من مجلس روميو وصديقه بنفوليو؛ فسمع صوت روميو وهو يتحدث إلى صاحبه، فأدرك من نبرات الصوت أنه روميو فهاج، واحتدم غضبه، وزمجر قائلا:

- هذا بلا شك صوت مونتاجو. يا غلام هات سيفي لأؤدب هذا الدخيل

علينا. يا عجبا.. كيف يجتريء هذا العبد على المجيء إلى حفلنا ملثما مخفيا سحنته ليهزأ بنا، وينتهك حرمتنا، ألا وشرف هذا البيت لأقتلنه فما في قتله من ذنب ولا إثم.

ولاحظ الشيخ كابوليت هياج ابن عمه فأقبل مهرولا ليسأله قائلا:

- ما بالك يا صاح غاضبا هكذا عاصفا؟

قال في حدة:

- ألا ترى يا عماه هذا فتى من عشيرة مونتاجو عدونا الألد، جاء ليحط من قدرنا ويمس كرامة عيدنا في هذه الليلة.

فبهت الشيخ وقال:

- أهو الفتى روميو؟

فصاح تيبالت:

- أي نعم هو روميو النذل الأثيم.

فلم يكن من كابوليا إلا أن حاول تهدئة ثائرة تيبالت قائلا:

- هون عليك يا ابن العم، ودعه في سلام.. إنه يلوح سيدا محتشما أخا أدب وخلق، وإن فيرونا والحق يقال لفخورة به، معجبة بفضائله وآدابه وعفافه ونزاهته. يمينا ما كنت ولو أعطيت مال قارون لانتقص من قدره وهو الساعة في بيتي، فنصيحتي لك أن تلتزم السكينة وليس عليك منه، هذه إرادتي، فإن كنت تحترمها فتطلق وتهلل، ولا تبد هكذا جهما عبوسا مقطب الجبين فإن هذا لا يليق في عيد طيب، وحفلة سرور ومرح وابتهاج.

فصاح تيبالت قائلا:

– بل يليق حين يكون مثل هذا النذل ضيفا، أنا لا أطيق احتماله في الوليمة.

فغضب الشيخ وأجابه بقوله:

– ولكنه محتمل عندي. يا عجبا لك أيها الغلام. ألا تسمع قولي أنه سيبقى مكرما هنا. أفأنت السيد في هذا البيت أم أنا. ألا حسبك. أتريد أن تثير فتنة بين ضيوفي، وتحدث ضجة في بيتي. أفلا تهدئ من روعك يا رجل؟

– هذا عار يا عماه.

فصاح به الشيخ ثائرا:

– حسبك.. حسبك.. إنك لغلام قليل الحياء. أهكذا يكون السلوك أهكذا تعارضني؟ والله إنه لبديع!

وانثنى إلى الموسيقيين يشجعهم.. ثم عاد إليه يقول:

– حسبك يا هذا إنك لغلام جريء. صه ولا ترفع الصوت.. وإلا..

ولكنه لم يستسلم وراح ينادي:

– زيدوا الأضواء وهجا.. زيدوا الأضواء سنا.. العار عليك يا هذا سأسكتك بنفسي.. الله.. الله.. لكم يا سادة.. خذوا في لهوكم فإن اليوم لكم.

فقال تيبالت وقد هدأت عاصفته:

– لا يجتمع الحلم والغضب في صعيد واحد، ولهذا فإني منسحب، ولكن هذا المتطفل لن يترك بغير جزاء.

وانصرف مغضبا لا يلوى على شيء، ولما كفت الموسيقى عن الصدح، واستعاد الراقصون والراقصات مجالسهم، تقدم روميو وكان كما مرت بك متنكراً في زي حاج، إلى جولييت فتناول يدها وأنشأ يسكب في سمعها كلاما

رقيقاً ساحراً، وهو يقول:

– إذا كنت ألوث بيدي الحقيرة الذليلة هذا الهيكل المقدس الطاهر؛ فإن عقوبتي هي هذه يا سيدتي الحسناء، شفتاي اللتان تحجان إليك في استحياء مستعدتان أن تمسحا أثر لمسة اليد الخشنة الجافية، بلثمة رقيقة حانية.

فأعجب الفتاة حسن تعبيره فأجابته قائلة:

– أيها الحاج الكريم لقد ظلمت يدك فيما وصفتها به أكثر مما تستحق، وهو مظهر تقوى وعبادة صادقة فيك، لأن للأطهار والأبرار أيد يمسها الحجيج، ويلمسها القصاد، ولمس الراح للراح عند الحج تقبيل.

فقال روميو:

– ولكن أليس للأطهار شفاه كما للحجاج شفاه؟

– أي نعم أيها الحاج ولكنها شفاه لا تستخدم إلا في الصلاة والابتهال

– إذن دعي الشفاه أيتها القديسة العزيزة تفعل ما تفعله الأكف، دعيها تدعو وتبتهل، حتى لا يتحول الإيمان إلى يأس، ويتبدد الأمل من النفس.

– إن القديسين لا يتحركون، وإن منحوا البركة للسائلين والمبتهلين.

– إذن لا تتحركي ريثما أتلقى سؤلي ويستجاب لابتهالي، ويتحقق تضرعي، وبذلك يتطهر ذنبي من شفتي بشفتيك.

– وعندئذ تكون شفتاي قد اجترحتا ذنبا وهما تطهران ذنبا مثله

– يا له من ذنب حلو المذاق عذب. ألا ردي على شفتي الذنب الذي أخذته منهما

في تلك اللحظة مرضعتها تنبئها بأن أمها تسأل عنها لتقول كلمة لها، فانثنى روميو إلى المرضعة ولم يكن إلى تلك الساعة يدري من تكون الحسناء التي تحدث إليها. فقال:

– ومن تكون أمها؟

– لك الله أيها الفتى.. أمها هي ربة البيت، ونعمت السيدة كرما وفضلاً وأنا التي أرضعت ابنتها التي كنت تتحدث الساعة إليها ولست أكتمك أن من يستطيع أن يضع يده عليها ويظفر بها تتفتح له أبواب السعادة ويبتسم الحظ.

فوجم روميو وذهل وراح يقول:

– إذن هي من عشيرة كابوليت؟ أيها القدر العجيب. لقد جعلت حياتي لعدوي دينا يستقضيه، ورهنتني لخصمي رهنة لا فكاك منها.

فأمسك بنفوليو به وهو يقول:

– هلم بنا ننصرف. لقد كان سرورنا على أحسنه.

– هذا هو ما أخشاه. ولو بقينا لأنقلب إلى أسوئه وأحزنه.

وكان المدعوون قد بدأوا ينصرفون؛ فصاح الشيخ كابوليت بهم قائلا:

– أيها السادة لا يزال في الوقت فسحة فلا تذهبوا فإن في الوليمة بقية. وفي اللهو مجالا. وفي الحسان المواهب دلالا. يا عجبا. أهكذا إلى الذهاب يا كرون؟ ألا شكراً لكم، شكراً أيها الكرام لكم، وطاب ليلكم. يا غلام قرب الأضواء، وأكثر من المشاعل، وهيا بنا إلى المضاجع، فإن الليل مدبر.

ولما أخذ المدعوون ينصرفون دنت جولييت من مرضعتها فقالت:

- أتعرفين يا مرضعتي من يكون ذلك الشاب الذي يلوح هناك منصرفا مع الآخرين؟

- هو ابن الشيخ تيبيريو.

- ومن يكون هذا الفتى الذي اقترب من الباب ليخرج؟

- لعله الشاب بتروشيو.

- ومن ذلك الفتى الذي يسير في أثره والذي لم يشأ أن يراقص أحداً؟

- لا أعرف من يكون.

- اذهبي اسألي عنه، فإن كان متزوجاً فلوحي لي. إن فراش عرسي سيروح فراش نعشي.

فأجاب المرضعة:

- إنه يدعى روميو وهو من أسرة مونتاجو، والابن الوحيد لعميدها.

فتأوهت جولييت وزفرت قائلة:

- لقد نبت حبي الأوحد من بغضي الأوحد، تلاقيا وهما لا يدريان، وتعارفا بعد فوات الأوان، فيا له من حب ولد شاذاً خارقاً للطبيعة، إذ كيف يحب المرء من هو عنده ألد الخصام؟

فعجبت المرضعة مما سمعت وقالت متسائلة:

- ما هذا الذي تقولين؟

- أبيات من الشعر سمعتها اللحظة من فتى كان مراقصي.

وفي تلك اللحظة سمعتا صوتا من بين الحجرات في القصر ينادي:

- جولييت!

فأجابت المرضعة:

- ها نحن قادمتان.

وانثنت إلى جولييت قائلة:

- هيا بنا فإن البيت قد خلا من الغرباء.

القسم الثاني

-١-

حينما خرج روميو مع بنفوليو ومركوتيو من دار كابوليت، واحتواهم الطريق الذي تطل عليه حديقتها، وقف روميو عن السير وزفر زفرة من الأعماق، وأنشأ يقول:

- كيف أمضى وقد خلفت قلبي هنا؟.. أيتها الأرض دوري راجعة وابرزي مركزك خارجا.

وما كاد يسير مع صاحبيه غير بعيد، حتى انفلت منهما، وانطلق هاربا وعاد إلى الطريق الذي تقوم فيه دار كابوليت فتسلق الجدار وهبط الحديقة.

وقلق صاحباه عليه فذهبا يبحثان عنه، حتى بلغا دار كابوليت في اللحظة التي كان روميو قد تسلق جدارها واختفى في الحديقة. فنادى بنفوليو ابن عمه قائلا:

- يا روميو.. يا روميو. أين ذهبت؟

فقال له مركوتيو:

- لا خير في البحث عنه، فإن روميو عاقل، وأقسم لك أنه لا بد قد تسلل عائداً إلى بيته وأحسبه الآن في مرقده.

- كلا، فقد رأيته يجري في هذه الناحية ويقفز فوق هذا الجدار، فناده يا مركوتيو لعله يستجيب لك.

فأجاب مركوتيو وكان للمجون شديد النزوع:

- بل سأعزم عليه تعزيما، يا روميو. أيها العاشق. أيها المجنون. أيها الصب المستهام، هلم أظهر. هيا لح لنا، ولو في صورة زفرة مستعرة أو تنهدة مضطرمة، أو غننا أغنية، أو ابعث إلينا نغمة مشجعة، لنطمئن عليك. قل هاأنذا، أو تفوه بكلمة مستهام أو أهدل كما يهدل اليمام، تكلم مع «فينوس» ربة الجمال، كلمة واحدة من كلمات الحب والخيال، ولو كنية من كنيات ابنها كيوبيد الأعمى ووريثها رب السهام والنبال. أقسمت عليك يا روميو بلحاظ روزالين، وبهي الجبين، وحمرة الشفتين.. أقسمت عليك بقدمها الصغيرة، وساقها المستوية أن تظهر للعيان عليك الأمان

فقال بنفوليو متململا من مجونه:

- لو سمعت روميو لغضب من ندائك.

فحدجه مركوتيو قائلا:

- كلا.. لا يغضبه ندائي، وإنما الذي يغضبه أن أستحضر روحا في شكل حسنائه، وإن لم يكن لها مثل طبعها وبهائها. وحسنها وراءه، فإذا ما مثلت أمامه، وعزمت عليها فاختفت عن عينيه، وتلاشت من ناظريه، هاج بلا شك وغضب، واشتعل في نفسه لظى الحب، ولكن تعزيمتي هذه بريئة مقبولة، لأنها اسم حبيبته الجميلة، فكل غرضي من التعزيم عليه، هو تنبيهه والإهابة به.

فصاح بنفوليو به قائلا:

- تعال بنا فإني رأيته قد اختفى خلف هذه الأشجار، في خلوة مع الليل قبل أن يدركه النهار، لأن الحب أعمى وأنسب شيء له الظلام.

- إذا كان الحب أعمى، فكيف يصيب الهدف، وأكبر الظن عندي أنه الساعة جالس تحت شجرة زعرور، يتمنى لو أن حبيبته كانت زهرة من الزهور، أو ثمرة من الثمار، أو خوخة أو كمثرى، فتهبط عليه ندبة باكرة. يا روميو طاب ليلك، فإني ذاهب إلى فراشي، لأن افتراش الأرض في هذا البرد لا يجلب نوماً لعيني ولا يطيب مضجعا. هيا بنا يا بنفوليو إذا شئت.
- نعم لننصرف بلا فائدة من البحث هنا عمن لا يريد ظهورا.

-٢-

وكان روميو قد سمع صوت مركوتيو ووعي بجنونه وفهم مزاجه، فظل مختبئا حتى ساد السكون واستوثق من انصراف صاحبيه، وعند ذلك تقدم بمشي في تنافس الحديقة وهو يناجي نفسه قائلا:

- لا عجب من أن يسخر من الجراح من لم يحس في يوم ما ألمها، ولا يعرف الهوى إلا من يكابده.

وكان القمر قد تجلى في السماء بنوره الفضي وأشعته الساجية؛ فخرجت جولييت إلى النافذة. وما كاد روميو يتطلع إلى القمر ببصره حتى لمح جولييت في شرفتها. فأنشأ يقول:

- يا لساني صمتا، ويا شفتي سكوتا.. إن ضياء باهراً قد انبثق من تلك النافذة.. القمر والشمس تلاقيا. جولييت.. أيتها الشمس البهية اطلعي واقتلي القمر الحسود. فها هو ذا من أول وهلة مريض، شاحب، لأنك أحسن منه بهاء، وأجمل منه ضياء. رباه.. هذه هي الغادة التي أحببتها. فليتها كانت تعرف أنها عندي مراد النفس وبغيتها.

وخيل إليه أنها قد فتحت شفتيها فتكلمت. فقال:

- رباه إنها تتكلم. ولكن لا تقول شيئاً فماذا ترى وراء انفراج شفتيها.. إن عينيها تناجيانني. ولا بد لي من إجابتهما.

ولكنه ما لبث أن تردد ورأى أن الكلام قحة منه. والقول منه جرأة لأن الكلام غير موجه إليه. وليس هو المراد بالنجوى. ورآها تتطلع بعينيها إلى السماء فقال:

- إن في السماء لكوكبين من أبهر كواكبها يريدان احتجابا في شأن لهما فهما يتوسلان إلى عينيها أن يشعا مكانهما حتى يعودا من شأنهما. فماذا يكون لو أن عينيها كانتا في موضع هذين الكوكبين.. أو كان هذان الكوكبان في محجريها. إذن لراح شعاع خديها. يكسف الكوكبين لديها. كما يخجل ضياء النهار المصابيح. بل أذن لأرسلت عيناها خلال أقطار السماء ونواحيها سناء وهاجا. يغري الطير بأن تشدو. ويبعث الطيور الصداحة على أن تغرد. واهمة في النهار وقد أشرق وأن الليل قد تبدد. يا الله. إني لأراها قد أسندت خدها إلى راحة يدها فيا ليتني كنت قفازا في تلك اليد، حتى أمس ذلك الخد.

وفي تلك اللحظة تنهدت جولييت وأنشأت تقول في نجواها:

- ويحي.. ويحي!

فغمغم روميو قائلا:

- ها هي ذي تتكلم.. أيها الملاك البهي تكلم مرة أخرى، فإنك في إشرافك، وروعة بهائك، كرسول ذي أجنحة من السماء إلى أعين البشر الشاردة المتطلعة إليه وهو يمر مخترقا السحب المتباطئة! سابحا فوق صدر الفضاء بأشرعته.

وعادت جولييت إلى مناجاتها فقالت:

– روميو.. روميو.. لماذا أنت روميو.. ألا انكر أباك وتخل عن اسمك! وإلا فأقسم بحبي.. فأنكر أنا اسمي ونسبي، وأتخلى عن كوبوليت.

ولم تكن جولييت وهي مسترسلة في نجواها تحسب أن أحدا يسمعها، فحار روميو في أمره، وجعل يسائل نفسه قائلا أيلازم الصمت ليسمع أكثر مما سمعه أو يجيبها على ما قد سمع منها.

وإذا بجولييت تسترسل في مناجاتها قائلة:

– ليس فيك يا روميو عدو لي غير اسمك، فيا ليتك لم تكن من عشيرة مونتاجو.. فأنت خلا ذلك ذاتك ونفسك، ولكن ليت شعري ماذا يهم من مونتاجو هذه والنسبة إليها، وهي ليست يدا، ولا قدما، ولا ذراعا ولا طلعة ولا شيئاً من فضل المرء وصفته. أواه ليت لك اسما غير اسمك إذ ماذا في الأمس وأي معنى هو مؤديه. فلو سمينا الوردة بغير ما سميناها به، لما كانت أقل نفحاً، ولما نقصت عطراً وعبيراً فواحاً.. ولو لم يسم روميو باسمه، لما نقص شيئاً من ذلك الأرج الفواح الذي يتأرج منه. أي روميو! تخل عن اسمك، أهبك نفسي جميعاً وأملكك قلبي كله..

فلم يعد يستطيع روميو صمتا بل راح يجيبها بقوله:

– لتكن إذن مشيئتك. فلتسميني «الحب» أتعمد به عماداً جديداً، ولن أكون روميو بعد الآن.

فما كادت جولييت تنتبه من نجواها على صوته حتى أوجست خيفة وغشيها من الفزع ما غشيها، فأنشأت تسأل قائلة:

– من هذا الذي تسربل بستر الليل فاسترق السمع على مناجاتي لنفسي؟

فأجابها روميو بقوله:

- لا أدري بأي اسم أتسمى لكي أجيبك أنني أنا، فقد أصبح اسمي لدي بغيضاً لأنه بغيض لديك ولو كان مكتوبا لمزقت الاسم تمزيقا.
- إن هذا الصوت أعرفه، وإن لم تشرب أذناي منه غير كلمات معدودة ألست أنت روميو. ألست من آل مونتاجو؟
- ما أنا يا ملاكي الجميل بهذا ولا ذاك إن كان كل منهما عندك مكروها.

وتولى جولييت الخوف عليه من اقتحامه القصر على هذه الصورة في سكون الليل ورهبته، فقالت:

- كيف جئت خبرني وكيف تقدمت، وماذا أتيت تصنع؟ إن جدران البستان لشاهقة، صعبة التسلق، وفي هذا الموضع الموت راصدك إذا ما اهتدى أحد من عشيرتي إليك.
- على أجنحة الحب طرت إليك يا جولييت، لأن الحب لا تحول الجدران الشاهقة دونه، والحب جسور لا يقهره شيء ولا يمنعه سد ولا يحتجزه جبل ولا طود، ولم يخفني من أهلك أحد.
- ولكنهم إذا رأوك قتلوك.
- إن في عينيك ما هو أخطر من سيوفهم مجتمعة، فانظري نحو نظرة رضى وحب، أكن في مناعة من الطعن والضرب.
- لا أود ولو أعطيت العالم أن يروك هنا فيسيئوا إليك.
- إني بالليل متزمل فهو يحجبني عن أنظارهم، ولو أنك أحببتني فما أحفل بمجيئهم إذ لخير لي أن تنتهي حياتي سريعاً ببغضائهم من أن يتراخى الموت

عني وأنا من حبك السائل المحروم.

– خبرني بالله ما الذي قادك إلى هذا المكان؟

– هو الحب هداني إليه. الحب دفعني أولاً إلى السؤال عنك فعرفت، هو أعارني النصح وأنا أعرته العينين. ولئن لم أكن في السفين زورقا هاربا، فإني لمهتد إليك ولو قامت بيننا البحار فاصلة، وترامى الأوقيانوس أمامي هائلا، ومن يهتد بالحب فلا يضل سبيلا.

– لولا أن الليل يحجب الساعة وجهي لرأيت أرجوان الحياء عليه، خجلة مما سمعتني الليلة أتفوه به، والله لوددت أن ألتجئ إلى الإنكار، وأصطنع المداراة، ولكن حاشاي أن أفعل حاشاي. فوداعا أيها الكذب، وبعداً أيتها الكتمان. وحسبي أن تخبرني هل أنت حقا تحبني. إني أعلم أنك قائل نعم وإنني مصدقتك. فلا تقسم فقد يخون المحبون عهوداً أقسموا عليها. ويحنثون في مواثيق ارتبطوا بها والناس قائلون أن أيمان العشاق لا أمان لها. أي روميو العزيز إذا كنت حقا تحبني فحسبي منك أن تصارح في إخلاص وتبوح. أما إذا كنت تحسب أنك مستطيع أن تستهويني بسرعة وتستميلني. فليس لك عندي غير الإعراض والرفض والإباء. الحق أقول يا روميو أنني أحببتك ولكن لا تحسب اعترافي هذا طيشا مني ومسلكا غير حكيم. بل ثق أنني أصدق مودة وحباً من أولئك اللاتي يخفين حبهن وراء التكتم والدلال والكبرياء. ولقد كان أولى بي أن أكون أحرص من هذا الذي بدا مني، ولكنك استمعت إلى نجواي في جنح الليل قبل أن أستوثق من حقيقة هواي، فاصفح إذن عني ولا تحمل إعلان حبي على الاستسلام والنزق، فإن الحب الصادق الحق، غلبني على أمري، بعد أن رأيتك في الظلمة قد عرفت واكتشفت.

فكاد روميو يذهب به الفرح كل مذهب، وأنشأ يقول:

– أقسم لك بهذا القمر، الذي يضيء قمم هذا الشجر، وأغصان الثمر، أنني..

ولكنها عاجلته قائلة:

– كلا. لا تقسم بالقمر، فليس له من ثبات ولا مستقر، إنه يتحول ويستدير ويمحق ويتغير، طيلة دورة الشهر، حتى لا يكون حبك مثله قلباً متحولاً.

– بأي شيء إذن أقسم؟

– لا تقسم مطلقاً أو إذا لم يكن من القسم بد، فأقسم بحياتك، أقسم بشخصك الكريم الذي أصبح لي معبوداً وأصبحت له عابدة، فإني لهذا القسم مصدقة معتقدة.

– إذا كان حبي، ومشتهى قلبي.

ولكنها قاطعته مرة أخرى بقولها:

– حسبك لا تقسم، فإنني لا أريد أن يكون الليلة تعاهد بيننا، فإن في ذلك عجلة لا حاجة إليها، وتسرعا لا موجب له، ومباغتة متناهية، كالتماع البرق ما يكاد يومض حتى ينطفيء، ولا ينبثق حتى سرعان ما يتوارى. فالآن طاب ليلك أيها العزيز، إن نوار هذا الحب لا يلبث على أنفاس الصيف وحرارته المنضجة، أن يصبح زهرة فيحاء، حين نلتقي للمرة الثانية. الآن أستودعك الله، أستودعك الله، ولتجدن من الهناءة والراحة والغبطة في نومك ما أنا واجدته الساعة في صدري.

فقال روميو متوسلا:

– أواه..! أتاركتي أنت هكذا غير مطمئن ولا مقتنع؟

– ولكن أية طمأنينة يمكن أن تظفر بها الليلة؟

– نتبادل الحب إخلاصا بإخلاص، ووفاءً بوفاء.

– لقد أعطيتك قبل أن تسألني إياه، وبودي لو أهبه لك مرة أخرى.

– أتريدين أن تستردیه، ولماذا يا حبيبتي؟

– لكي أعطيك إياه ثانية إن أردت الحق لأنه كل ما عندي، وإن حبي لمترام كالبحر عميق كأغواره، كلما أعطيتك منه لم ينفد، لأنه بلا نهاية ولا حد.

وفي هذه اللحظة سمعت جولييت صوت مرضعتها تنادي من داخل البيت:

– إني أسمع صوتا، فأستودعك الله أيها الحبيب العزيز. ها أنا آتية يا مرضعتي. يا مونتاجو العزيز ناشدتك أن تكون في الحب صادقا. وابق لحظة عائدة إليك.

ودخلت مخدعها فتوارت عن ناظره، وراح هو يناجي الليل قائلا:

– أيها الليل الذي أنت مسعدي أخشى وأنا الساعة مكتنف بأستارك أن يكون هذا يكون هذا كله حلما في الكرى من بعض أحلامك، فقد تناهي في العذوبة والسعادة حتى يكاد يكون خيالا ويروح صوراً وأوهاما.

وما لبثت جولييت أن عادت إلى الشرفة فأطلت عليه وقالت له بضع كلمات:

– إليك يا روميو العزيز قبل أن نفترق ويطيب ليلك، فاسمعها مني صريحة موجزة، إن كان غرضك في الحب شريفا، وكانت غايتك منه زواجا عفيفاً، فابعث إلي رسولا غدا لأوافيك معه، وعيِّن الزمان والمكان اللذين يتم

فيهما القران، وأنا أضع مصيري كله عند قدميك وأتبعك إلى أقصى مكان في هذا العالم إذا أنت ذهبت إليه.

وعادت مرضعتها تناديها. فأجابتها قائلة:

– ها أنا آتية.

وانثنت إليه تقول:

– أما إذا لم يكن هذا هو غرضك، فكل الذي أرجوه إليك.

ولكنها لم تستطع إتمام كلمتها إذ سمعت صوت المرضعة مناديا. فقالت:

– ها أنا يا مرضعتي قادمة. (واستأنفت تقول): كل ما أسألك إياه هو أن تكف عن ترددك، ودعني لأشجاني. غدا سأرسل إليك رسولا.

– إن روحي ستظل إلى الغد في لهفة على موفده.

– طاب ليلك ألف مرة.

واحتجبت عن ناظره. فغمغم قائلا:

– بل أبأس به ألف مرة مرة وأسوء، إذا كان قد احتجب عني فيه ضياؤك واختفى عن عيني سناؤك. إن الحب ليمشي إلى الحب. كما ينصرف الولدان عن الدفاتر والكتب. ولكن الحب حين ينصرف عن الحب، يروح كالولدان حين ينصرفون إلى المدرسة واجمين مطرقين متلكئين.

وفيما هو كذلك سابح في أودية النجوى لا يريد منصرفا عن موضعه، إذ أطلت عليه جولييت مرة أخرى. وهو ذاهل لا يدري. قالت تناديه مخافتة بصوتها:

– روميو.. روميو.. أواه.. إنه لا يسمع ندائي.. فمن لي بصوت باز أستعيد

به هذه الطائر الكريم.. إن الاستعباد أبح خشن فلا يصح له أن يرفع الصوت.. ولولا ذلك لهدمت الكهف الذي يختفي فيه الصدى. وجعلت للهمس رنينا مدويا ولحملت لسان الهواء على أن يكون باسم روميو متردداً.

وهنا أفاق روميو من ذهلته. فقال:

- أسمع روحي تنادي باسمي. يا الله ما أعذب رنين أصوات العشاق في جوف الليل أبداً، كأنه الموسيقى الرقيقة الأنغام في الآذان الواعية.

- روميو.

- ها أنا يا عزيزتي.

- في أية ساعة غداً أوفد إليك رسولا؟

- في التاسعة.

- لن أتأخر عن إيفاده. رباه.! كأن عشرين عاماً لا تزال بيننا وبين هذا الموعد باقية. يا عجبا.. لقد نسيت اللحظة لماذا ناديتك أخيرا.

- دعيني أمكث هنا حتى تتذكريه.

- سأظل ناسيته مادمت هنا باقيا، لأن وجودي معك لا يدعني أذكر شيئا غير حبنا.

- سأظل باقيا لتظلي ناسية، فلا أذكر لي غير هذا الموضوع موطنا.

- الصبح أوشك أن يتنفس، فمن الخير أن تذهب، وإن كنت لا أود ذلك، ولا أرضاه، بل لا أحب أن تبتعد إلا كما يترك الصبي الطائر الأسير ينطلق ليتنزه قليلا، ثم إذا رام ابتعاداً اجتذبه بالخيط الذي يربطه به ويقيده. ما

أعجب الحب، إنه لغيور حتى من حرية حبيبه.

– وددت لو أنني كنت ذلك الطائر وأنت آسرته.

– ذلك ما أوده، ولكني أخشى أن أقتلك لكثرة تدليلك والإفراط في تعزيزك. فليطب ليلك، ليطب ليلك، فإن الفراق محزن، ولكنه عذاب لذيذ، حتى لأقول طاب ليلك حتى يكون غدك.

وتوارت من الشرفة راجعة، فوقف لحظة يقول:

– أيهبط النوم الهنيء على عينيك، ولتنزل السكينة في خاطرك، يا ليتني كنت النوم والسكينة لأستمتع بموضعهما من عينيك وصدرك. ولكن.. خير لي أن أذهب الساعة إلى صومعة الراهب الكريم الذي يحبني فأطلب معونته وأقص عليه قصتي.

–٣–

خرج روميو من دار كابوليت على مطالع الصباح، هائما شارد اللب، يريد صومعة الراهب الكريم الذي كان يحنو عليه، لكي يسأله المعونة على هذا الأمر الخطير الذي عرض له، وهو الزواج بجولييت سرا دون أن يعلم أحد من عشيرتهما به.

وكان الراهب لورانس يقيم في دار صغيرة له على ربوة عالية في بعض نواحي المدينة، بجانب كنيستها الصغيرة وقد عرف بالتقوى والصلاح، وفي داره تلك يتعبد وينسك ويقضي بعض وقته في تعهد بستانه وسقي أشجاره واقتطاف أزهاره.

وفي اللحظة التي كان روميو ميمما نحو كوخه، كان الراهب قد استيقظ

ونزل إلى الحديقة الصغيرة حاملا سلته في يده لقطف الزهر، وهو يناجي الخاطر قائلا:

– ها هو ذا الصباح الأشهب العينين يبتسم لليل العابس المتجهم؛ ويصبغ السحاب المتراكم، في الشرق بخيوط واهية من ضياء قائم، حتى ليبتعد الليل المدبر من طريق النار ومركبة الشمس المتلظية، كما يبتعد الشارب الثمل من طريق السابلة الرائحة الغادية. فالآن قبل أن ترنو الشمس بعينها الحمراء لتحية النهار الطالع، وتوديع الليل المتراجع وتجفيف الندى البليل الدامع، فلأملأ سلتي هذه بالأعشاب والأزهار المفيدة العصير، الصالحة للتقطير. إن الأرض أم الطبيعة وفي الوقت ذاته قبرها. وما قبرها إلا رحمها وأحشاؤها، ونحن بنو البشر الذين نرضع من صدرها، نستمد من جني بطنها أجنة مختلفة الصنوف والألوان. سبحانك رب ما أوفر الخواص وأجزل المنافع التي تحتويها الأعشاب والنبات والزهور والثمرات. فما من شيء على الأرض يحيا، حتى إن خبث، إلا كانت له فائدة! وكان الخير مختلطا بشره، والنفع مستمداً من صفاته وتأثيره. وما من شيء طيب يساء استعماله إلا انقلب خبيثاً من سواء استغلاله، بل أن الفضيلة نفسها تنقلب رذيلة، إذا لم يحسن الناس القيام عليها. ولن يحرصوا على فضلها ووجه استخدامها، وقد تنقلب الرذيلة طيبة فاضلة أحيانا. سبحانك رب. إن في طلع هذه الزهرة ما يكون سما قاتلا وما يكون دواء شافيا. فإن هو شم أحيا وأنعس. وإن هو شرب أخمد الحواس. خاصيتان متعارضتان. وصفتان متناقضتان. ولله في خلقه شئون.

وفيما كان يناجي نفسه بهذه الخواطر وأمثالها. وصل روميو فحيا الراهب قائلا:

– يا سبحان الله. من هذا الذي جاء يحييني بهذه العذوبة الباكرة. إن قدومك يا فتى مع أول خيوط النهار، ينم عن هم شاغل. ورأس مثقل بالأفكار. وحيث يرقد الهم لا يهنأ النوم. ولكن أكثر ما يكون الهم للشيوخ. فإنهم في الليل أيقاظ، وهم في الظلمة حراس. أما الشباب الخليون من الأحزان فإن النوم الهنيء يطاوع منهم الأجفان فلا عجب إذا تحققت من حضورك الآن على هذه الصورة الباكرة أن هناك أمراً يزعجك. وخطبا قد أسهدك. أو أنك لم تكن في فراشك الليلة الماضية

فأجاب روميو قائلا:

– القول الأخير هو الأصح. ولكني كنت في أعذب متعة وأهنأ ارتياح.

– أو كنت مع روزالين. استغفر الله من كل ذنب.

– أتقول يا أبي كنت مع روزالين. كلا فقد نسيت من تكون لقد كانت تلك الحسناء مصابا علي وبلاء.

– لقد أحسنت يا بني بتركها. ولكن أين كنت أذن.؟

– إنني لقائل لك قبل أن تسألني مرة أخرى. لقد كنت في حفلة خصومنا. فأصابني فجأة من سهام حسناء من حسانهم جرح أليم. كما أصابها مني بجرح ثخين، فنحن اليوم من الحب جريحان مثخنان، وعلاجنا على يديك وشفاؤنا ببركتك، ويعلم الله ما في قلبي اليوم من عداوة ولا بغضاء، ولعل ذلك سوف يمحو الكراهية من قلوب الآخرين.

– يا بني أوضح ما أبهمت، ورويدا بعض هذا الذي أسرعت في قوله وعجلت. فإن هذا الغموض في القول، لا يسعف على الحل.

– إذن فأعلم يا أبت أن قلبي قد أحب ابنة كابوليت، كما أحبني قلبها فاتحد

منا القلبان، وامتزج الجسمان، فلم يبق بعد الاتحاد النفسي غير ما تجمع يا أبت إليه من عقد القران، وسوف أقص عليك كيف اجتمعنا، ومتى تلاقينا، وكيف كان حبنا، وكيف تعاهدنا على الزواج وترابطنا، ونحن سائرين. أما الآن فإني أنشدك أيها الأب الكريم أن توافق على تزويجنا اليوم

فاشتد عجب الراهب وقال:

- يا الله ما هذا التغير السريع والانقلاب الغريب يا بني؟. أهكذا تركت روزالين وشيكا وكنت لها محبا، وعاشقا؟!. إن حب الشباب لا يسكن إذن أعشار قلوبهم كما يزعمون ولا يقع في حبات أفئدتهم، ولكنه في أعينهم، وفي أبصارهم.. يا عجباً..! كم من دموع مريرة ثخينة سكبت على خديك الشاحبين من أجل روزالين؟ وكم من دموع أخرى أذرفها لتمثل الحب بها، ومجيد سبكه وليس لها مذاق الحب ولا مطعمه الصادق ولا مخبره الأمين. إن الشمس لم تبدد بعد سحب تنهداتك وغمائم زفراتك وشهيقك. ولا نزال إلى الساعة ترن في مسمعي أصداء أناتك. بل انظر إلى خدك.. إن عليه لأثراً من دمعة قديمة ولم تمسحها كفك. لقد كان ذلك كله لروزالين، ومن أجل روزالين ثم هاأنت ذا قد تحولت ونسيت كل الدمع الذي سكبت، ألا قل معي قولة صادق، لا عجب إذا سقطت النساء ما دام في الرجال ضعف.

- لقد كنت تكثر من لومي على حب روزالين.

- لم أكن ألومك على الحب يا بني، ولكن كان لومي لك على الإغراق فيه والاستهامة والإلحاح عليه.

- لقد نصحت لي أن أدفن الحب.

- ما نصحتك أن تدفن حباً في قبر توسده فيه، لتخرج حباً آخر منه تتعلق به.

- اليوم لا عتب يا أبت ولا ملامة، فإن الفتاة التي أحبها تبادلني الحب أما روزالين فلم تكن كذلك.

- لأنها كانت تعلم أن حبك كان كلاما محفوظاً، وتمثيلاً ولم يكن حبا صادقاً منبعثاً من الفؤاد. ولكن هيا بنا أيها الفتى المتردد المتنقل في الحب، فإني سوف أعينك من وجهة واحدة. ولغرض واحد لا أكثر.. وهو أن هذا الزواج عسى أن يكون السبب في إزالة العداوة والبغضاء بين عشيرتيكما المتناحرتين. واستبدال الكره بينهما بالحب. والخصومة بالصفاء.

- هيا إذن بنا فإنني في عجلة.

- بل رويداً. فإن مع المستعجل الزلل.

تركنا بنفوليو ومركوتيو ينصرفان من بحثهما عن روميو غير مهتدين إليه. حين انفلت منهما وذهب يعتلي سور الحديقة قبيل الصبح ويدخلها خفية، حيث وقعت له تلك الخلوة التي عرف فيها جولييت وتبادلا خلالها الحب. وقد ذهب الصديقان إلى داريهما وهما منشغلين بأمره قلقين عليه. فلما كان الغد تلاقيا لمواصلة البحث عنه، وذهبا يجوبان المدينة لعلهما يهتديان إليه. وفيما يلي يسيران في طرقها ومناكبها راح مركوتيو يقول لصاحبه:

- ترى أين ذهب روميو. ألم تجده في بيته؟

- لم يذهب إلى قصر أبيه. وقد تحدثت إلى خادمه الخاص فنبأني بأنه لم يحضر إلى القصر الليلة الماضية.

- أحسب حبه لروزالين سر غيته هذه وأخشى أن يكون غرامه بتلك الفتاة الصفراء القاسية الفؤاد موشكا أن يفقده لبه ويرده مجنونا سليب الرشد من فرط الجوى وشدة العذاب في الحب

- لقد علمت أن تيبالت قريب الشيخ كابوليت قد بعث إلى روميو بكتاب على قصر أبيه.

- هذا طلب مبارزة والله.

- وسوف يجيبه روميو على كتابه.

قال ممازحا:

- كل من يستطيع أن يكتب لا يشق عليه أن يجيب على كتاب يتلقاه.

- كلا. فما هذا أردت، ولكني أعني أنه سيجيب تيبالت إلى ما طلب لأنه إذا استغضب غضب، وإذا تجرأ أحد عليه وجده الجسور المقتحم.

ولكن مركوتيو لم يكن من هذا الرأي إذ أجاب صاحبه بقوله:

- وا أسفاه على روميو فهو اليوم قتيل طعين، أصابته اللواحظ النافذة إلى قلبه من عينين سوداوين في وجه حسناء ناصعة البياض، كما أصابت سمعه طلقة من أغنية غرامية وشدوة من شدوات الهوى. لقد أصماه سهم الوليد الأعمى_ إله الحب_ في حبة القلب، فكيف يكون لمثل تيبالت مبارزاً وهو على ما رأيت؟

فصاح بنفوليو مستنكراً:

- ومن هو تيبالت هذا وما قيمته؟

- هو أكثر مشاكسة من الهر، وأحد من القط الخداش خلقا، ومن أصحاب

الجسارة والبسالة والإقدام، وإنه ليبارز على أقل من مهله وكأنه يلهوا لهواً، يبارز كما تغني أنت، محافظاً في النغمة على الوقت والمسافة والتناسب في الموسيقى ونظامها. فإذا امتشق السيف فليس عنده إلا واحد، اثنان، ثلاثة، فإذا ذبابة سيفه في صميم صدرك! مبارز بكل ما في الكلمة من معنى، وما في المجالدة من خطر.

وما كاد مركوتيو يتم قوله هذا حتى أقبل روميو عائداً من كوخ الناسك فما أن شهداه حتى صاح بنفوليو من فرط الفوز بلقائه:

– ها هو ذا روميو. ها هو ذا روميو.

فصاح مركوتيو قائلا وقد هاجت به نزعة المجون:

– ها هو حقا قد جاء ولكن بغير وليفته. كأنه من تحوله قد أصبح «رنجة» جافة مقددة.. يا بني، يا بني ما بالك تسمكت هكذا وتقددت كالسردين.. ها هو قد جاء ليسمعنا غزلا في صاحبته.. أين منه تشبيب «بترارك» في لورا محبوبته. بل أنها بالنسبة لمعشوقة روميو وفاتنته خادمة في مطبخ أو بيت وما «ديدو» إذا قورنت بصاحبته إلا قبيحة شوهاء زرية، وما كليوباترة إلا غجرية. وما هيلانة ولا هيرو ربات الجمال في التاريخ إلا بجانبها في عينه بعض الفواجر الفاسدات وما «تسبا» الشهيرة إلا نوعا ما جميلة ولكنها ليست مثلها حسنا وبهاء. يا سنيور روميو طاب صباحك أو «بونجور» تحية فرنسية للوثتك الفرنسية في الوله والجنون. لقد خدعتنا ليلة أمس خدعة طيبة.

– طاب يومكما.. أية خدعة تعني؟

فأجاب مركوتيو:

- إفلاتك أمس منا.. ألا تعتقد أنها كانت «هروبة» خادعة؟

- أستميحكما معذرة. لقد كانت لديّ مهمة خطيرة، وفي مثلها قد ينسى المرء آداب وقواعد اللياقة والمجاملة.

فضحك مركوتيو وأجاب قائلا:

- بل قل أن المرء في حالة كهذه مضطر إلى إحناء الركبتين.

- أو تعني خضوعها وانصياعها؟

- لقد أصبت الهدف.. بأدق تعبير وألطف.

- تعبيرك أكثر أدباً وأظرف.

- ولا فخر فإنني «معدنه».

- معدن زهر أن ماذا؟

- الذي تحسبه.

- زهرك قد فاحت رائحته.

- لندخل معا في هذه القافية حتى نستوعبها، لكي تبقى النكتة بعد زوال مضاعفاتها «وحيدة» فذة في ذاتها.

- يا للنكتة الوحيدة تتفرد بوحدتها وتتوحد بتفرد!

وإذ ذاك صاح مركوتيو بصاحبه بنفوليو قائلا:

- تعال الحقني يا بنفوليو وادخل بيننا فقد «غلب حماري».

فقال روميو ضاحكا:

- أوخزه بمهمازك قبل أن يركن.

- إذا كنت تجري هكذا خلف الإوزة الحاجلة هائجا «مبرطعا» فليست أجارتك. وهل كنت معك حين كنت تطارد الإوزة؟
- فاتك عمرك كله لأنك لم تكن معي في طرادها.
- سأنقرك في أذنك على هذه النكتة.
- أيتها الإوزة الهادئة لا تعضي ولا تنقري.

فضحك مركوتيو قائلا:

- أحسنت تنكيتا وأبدعت. ولكن بالله عليك أليس هذا أحسن وأفضل من التوجع والأنين من الحب. الآن هاأنت قد أصبحت طيب المجلس، رطب الحديث، أنيسا وكنت بريا جافيا.. الآن أنت روميو حقيقة.

وكانت الساعة قد اقتربت من التاسعة، فهمَّ روميو بترك صاحبه ليذهب إلى لقاء رسول جولييت، لولا أن رأى خادما من بيت أبيه يدعى «بيترو» قادما يمشي بجانب امرأة.. وكانت هذه مرضعة جولييت. وتقدمت المرضعة فحيتهم قائلة:

- طاب يومكم أيها السادة.

فقال مركوتيو مفاكها:

- بل طاب ضحاك أيتها الحسناء!
- أو نحن ضحى؟
- لا أقل.. لأن عقرب الساعة كاد يشك التاسعة.

فصاحت المرضعة قائلة:

- من أنت يا هذا.. إن لك كلاما عجيبا وتركيبا غريبا.

فانثنى روميو إليها يقول:

- إنه مخلوق يا سيدتي خلقه الله ليؤذي نفسه ويسيء إليها بالمجون والمزاح والسخرية من عباد الله.
- هو ذلك أيها السيد.. لقد أجدت الوصف.. هل فيكم من يدلني على مكان الشاب روميو؟

فنقدم روميو إليها قائلا:

- أنا أدلك عليه. لأنني أنا روميو بنفسه فما هي حاجتك؟.
- لي كلام أقوله لك على حدة.

فترك صاحبيه لينتحي بها جانباً، فصاح مركوتيو به قائلا:

- يا روميو ألا تأتي معنا.. إننا ذاهبان إلى قصر أبيك نتغدى فيه.
- إنني على أثركما قادم.

فصاح ثانية يقول:

- الوداع إذن أيتها السيدة «العتيقة»؟
- وداعا لا رغبة في لقاء بعده. ولكن نبئني من هذا الشخص الوقح السليط اللسان.
- هو سيد يحب أن يكثر من الكلام حتى ليتكلم في الدقيقة الواحدة أكثر مما يكف عنه في شهر.

قالت مغضبة:

- ولو تكلم شيئاً عني لأدبته ولو كان عشرة مثله مجتمعين. وإذا لم أستطع بنفسي وجدت الذين يستطيعون.. حقا إنه لنذل أثيم.. وهل أنا ممن يضحك عليهن. يذهب فيسخر من البنات اللاتي يعرفهن. أنا لست من

أنداده ولا من أشكاله.

وانثنت إلى بيترو صاحبها فقالت:

– وأنت كيف رضيت لنفسك أن تقف هكذا صامتاً ولا تؤدب أي وغد يريد أن يلهو بي؟

فقال بيترو:

– لم أر أحداً أراد بك لهواً، ولو رأيت لخرج سيفي وشيكا من غمده. فإني على القتال جريء إذا رأيت المناسبة تقضي بالدخول في شجار أنا فيه المحق والقانون بجانبي.

– يمين الله إني لغاضبة من هذا الذي جرى لي حتى إن كل جارحة في بدني ترتجف. يا له من نذل أثيم! وأنت يا سيدي كلمة لي معك.. إن سيدتي قد أمرتني بأن أبحث عنك. وقد قالت لي كلاما أحتفظ به لنفسي. ولكني أنبئك يا سيدي أنك إذا كنت تريد أن تقودها إلى جنة الحمقى كما يقولون وتلك بها مسالك الضلال. وهي شابة حدثة لم تجرب الحياة بعد. فإنك يا سيدي تسيء إليها إساءة بالغة وتفرض عليها أمراً شائنا وشيئا نكراً.

فأجابها روميو بقوله:

– اذكريني أيتها المربية بخير عند مولاتك وإني لأحتج على قلته.

فصاحت به مقاطعة:

– أحسنت.. أحسنت سيدي.. وسأقول لها كل ذلك. وستبتهج به كل الابتهاج.

– ماذا أنت قائلة لها فإنك لم تستمعي قولي إلى نهايته.

- سأقول لها يا سيدي إنك تحتج. وأنا أفهم من هذا إن ما عرضته عليها صادق شريف.

- إذن خبريها بأنني أطلب إليها أن تحتال أية حيلة على المجيء عصر اليوم إلى الكنيسة فقد اتفقت مع الراهب الصالح لورنس على أن يعقد قراننا في صومعته. وخذي هذا كبعض أتعابك.

وكان روميو خبيرا بما للمال من التأثير فدفع إلى المرضعة بمقدار منه إغراءً وترغيبا. قالت وهي متمنعة:

- كلا.. يا سيدي.. لا آخذ درهما واحداً.

- حلفت عليك إلا ما أخذت.

فأجابت وقد تناولت النفحة منه:

- كن واثقا يا سيدي أنها ستوافيك في الموعد المعين.. أقلت عصر هذا النهار يا سيدي؟

- ورافقيها أنت في مجيئها، وانتظري خلف جدار الكنيسة، وستجدين خادمي في ذلك الموضع قد جاء ليدفع إليك بحبال يصطنع منها سلم تحتفظين به لديك لكي أستعين به ليلا على الدخول سرا.. اذهبي واذكريني بخير عند مولاتك.

- بارك الله فيك يا سيدي..

وهم بأن ينصرف عنها.. ولكنها نادته إليها. قالت:

- وهل خادمك ممن يحفظ السر؟ ألم تسمع الناس يقولون كل سر جاوز الاثنين شاع؟

- لا تخافي.. إن خادمي صادق أمين كسيفي.

- حسنا يا سيدي.. إن مولاتي أجمل فتاة، وألطف غادة في العالم منذ كانت طفلة تلثغ وتثرثر حين كنت أرضعها ثديي.. فهل أتاك يا سيدي نبأ الكونت الذي يسمى باريس والذي يريد أن يتزوج بها ولكنها تفضل أن ترى العمى ولا تراه، وكثيراً ما أعمد إلى إغضابها بقولي لها إن باريس هو الخطيب المناسب والرجل الخليق بها. ولكني أقول لك الحق يا سيدي أنها كلما سمعت ذلك مني يشحب لونها وتصفر وجنتها. إنها تحبك يا سيدي حبا لم يعد خافيا.

- سلمي عليها وأبلغيها التحية.

- ألفا لا واحدة.. هيا بنا يا بيترو فقد تأخرنا.

-٥-

وكانت جولييت ترتقب عودة مرضعتها وهي في قلق شديد، وقد نزلت إلى حديقة القصر والهة متلهفة، وراحت تناجي خاطرها قائلة:

- ترى ما الذي أخرها؟ لقد أرسلتها في التاسعة وقد وعدت أن تكون هنا بعد نصف ساعة. فما الذي أعاقها. أتراها لم تجد روميو؟ لا أظن ذلك. يا الله من بطئها. لقد كان أولى برسل الحب أن يكونوا خواطر وأفكاراً فإنها والله أسرع عشرة أضعاف من أشعة الشمس طيرانا. وأنفذها إلى المحب بريداً. ألم يقولوا أن الحمائم تجتذب الحب، لقد صدقوا فإن أجنحتها أسعف على رسائله من سائر برده ورسله وخدمه وغلمانه. ثم ألم يصفوا كيوبيد إله الحب بغلام ذي أجنحة أسرع من الرياح رفيفا وجريانا؟ لقد بلغت الشمس رؤوس الربي، وانتصف النهار ولما تعد المرضعة فأين قضت

هذه الساعات الثلاث، ولو كانت تشعر بالحب، ويفيض في بدنها الدم الحار، دم القوة والشباب، لكانت مثل البرق مسرعة، ولحملت كلماتي إلى حبيبي في مثل السرعة الخاطفة التي تحمل كلماته إلى مسمعي راجعة. ولكن الشيوخ للأسف بطاء ثقال كالرصاص. صفر الوجوه كأنهم موتى الإحساس.. ولكن رباه.. ها هي ذي قادمة.

واستبقت مرضعتها متهللة وهي تسألها قائلة:

- ما وراءك يا مرضعتي العزيزة. هل قابلته؟

ولكنها أمسكت إذ رأت بيترو معها. وما لبث أن عادت تقول:

- أرسلي صاحبك بعيداً لكي نتحدث معاً.

فتنحي بيترو وذهب مبتعداً عند باب القصر، بإشارة من المرضعة فلما اختلتا، أنشأت جولييت تقول:

- والآن أيتها المرضعة الحلوة الكريمة، ماذا وراءك.. ولكن رباه.. ما بالك تلوحين هكذا واجمة ساهمة؟ وقد عهدتك تقصين الأخبار حتى الحزينة منها وأنت مرحة متهللة بادية السكينة والهدوء. فعلام هذا الوجوم اليوم وتلك الكآبة الظاهرة؟ لو كانت الأخبار التي جئتني بها حسنة طيبة فأنت بهذا الوجه المتجهم الساهم مفسدة حلاوتها، متنكرة لمطرب أنغامها. وعذوبة موسيقاها. نبئيني وعجلي ما الذي بك يا مرضعتي؟

- إنني فقط متعبة من طول السير فهلا أمهلتني حتى أسترجع أنفاسي اللاهثة. يا إلهي.. إن عظامي لفي ألم شديد.

فاشتد فضول جولييت وراحت تقول:

- خذي عظامي وهاتي ما حملت من خبر. فلست أطيق الصبر.. بالله عليك

تكلمي.. أيتها المرضعة الكريمة حدثيني ولا تتمهلي.

فتمنعت العجوز وتلكأت قائلة:

- رباه.. ما هذه العجلة؟ وما هذا التسرع الغريب. ألا تستطيعين الصبر لحظة. ألست ترين أنني ألهث ولا أكاد أملك أنفاسي من شدة التعب.

فتململت جولييت قائلة:

- كيف تقولين أنك لا تملكين أنفاسك وها أنت ذي تملكين منها ما تقولين به أنك لا تملكينها. إن العذر الذي تنتحلينه عن هذا التأخير أطول من القصة ذاتها التي تسوقين العذر بشأنها، وكان يكفي أن تقولي هل وراءك أخبار سارة أم أخبار سيئة؟أجيبي عن سؤالي هذا وكفى.. هيا تكلمي أسارة أخبارك أم هي أنباء سوء؟

فبدأت المرضعة تروي ما عندها. قالت في تلكؤ واستطالة وتمهيد مضجر ممل:

- لقد اخترت خيرة سهلة. أو إن أردت الحق، ساذجة. كأني بك لا تعرفين كيف تختارين الرجال. روميو هو الذي وقع عليه اختيارك. ولكن أترينه صالحا. وإن كان وجهه جميلا، وتقاطيعه حسنة، وساقاه ويداه ومعالم بدنه لا عيب عليها ولا اعتراض. ولكنه ليس على كل حال بالرجل المؤدب المبالغ في تحياته ومجاملاته وإن كان وديعا كالحمل.. ولكن أنت وما تشائين يا فتاة.. هل تناولت طعام الغداء في البيت؟

- كلا.. كلا ولكن نبئيني ماذا قال روميو عن زواجنا. هذا هو كل ما يهمني أن أعرفه.

فتوجعت العجوز وتأوهت قائلة:

- رباه.. ما أشد وجع الرأس، إنه لوجع شديد لا أطيق وصفه. كأن رأسي

يوشك أن يتصدع عشرين صدعا.. ثم ظهري.. أواه. إن ظهري في ألم بالغ.. أهكذا سولت لك النفس أن ترسليني أطوف جميع شوارع المدينة أبحث وأنادي وأستكشف وأحاول الاهتداء، حتى كدت أسقط من الإعياء.. ما أقساك يا بنية.

قالت متململة من ثرثرة العجوز وكثرة كلامها:

– إنني آسفة على ما حدثت لك من جهد ومتعبة. ولكن نبئيني يا مرضعتي الكريمة، الحلوة، الحنون، الحدبة، ماذا قال لك روميو؟

– لقد قال لي حبيبك، قولة سيد صادق مخلص أمين وإنسان كريم مؤدب رحيم، وفتى مليح جميل وسيم.. ولكن أين والدتك؟

فصاحت بها جولييت وقد مسها من الضجر ما مسها. واشتد بها الفضول أي اشتداد:

– أين والدتي؟ وما هذا السؤال. إنها في البيت. أين يمكن أن تكون إذا لم تكن في البيت. يا عجبا والله لأجوبتك وأحاديثك. ألا تقولين في الحال ماذا جئت به من الأخبار؟

– عجبا لك أيتها الفتاة. أي عجب ما بالك هكذا منفعلة مستعرة الخاطر، ملتهبة الشعور. أهذا هو دواء عظامي الواهنة وأوجاعي المؤلمة المحزنة. كلا يا سيدتي ما أنا برسولك بعد الآن بل بعد اليوم احملي رسالاتك إليه بنفسك.

فقالت جولييت وهي في أشد حالات التبرم والملل:

– هاأنت ذي رجعت إلى ما بدأت به.. حدثيني في الحال ماذا قال لك روميو؟

– هل أخذت من البيت إذنا بالذهاب اليوم إلى الكنيسة؟

– نعم..

– إذن أسرعي إلى صومعة الراهب لورانس تجدي ثم العاشق الذي سيتزوج بك.. يا الله.. ها هو ذا الأرجوان يثب فجأة إلى خديك، وها هي علامات الفرح قد ارتسمت على محياك. فالله لكم أيها الشباب. إذن أسرعي إلى الكنيسة. أما أنا فذاهبة في مهمة أخرى، وهي استحضار سلم من الحبال لكي يرقى عليه زوجك وحبيبك إلى عش الطائر إذا ساد الدنيا ظلام أنت تسعدين وأنا أشقى، لك العروس «العريس»، والجري للمتاعيس. هيا أسرعي إلى الصومعة، أما أنا فلا أستطيع الحركة حتى أتناول وجبة الغداء المشبعة.

فصاحت جولييت من فرط الفرح مما سمعت:

– ها أنا مسرعة إليه.. فشكراً لك أيتها المرضعة.

–٦–

وكان روميو يرتقب جولييت عند الراهب الكريم «لورنس» وقد أعد لها إكليلا من الزهر.. بينما جعل الراهب يهيئ لصلاة الإكليل وطقوسه. فلما وصلت جولييت تلقاها روميو بعناق حار وأحضان مستطيلة. وظلا مأخوذين بسكرة الحب مليا. وكان الراهب قبل مجيئها قد جعل يقول لروميو:

– يا بني أرجو أن ترضي السماء عن هذا العمل الذي توشك أن نقوم به.

– آمين. آمين. ولكن أعلم يا أبت أنه مهما يصنع الدهر بنا بعد هذا القران، فلن يغير من فرحة هذه الساعة وهناءتها، ولن يمحو من الذاكرة سعادتها

ورهبتها. إن الموت نفسه لن يؤثر في حبنا.. حسبي أنها قد أصبحت لي زوجا.

- كل ما أخشاه يا بني أن هذه الفرحة العنيفة تعقب خاتمة عنيفة مثلها، فهي في انتصارها يقضي عليها، كالنار والبارود إذا تلاقيا تلاشيا، وإذا اجتمعا وتمددا، انفجرا وتبددا. وأن أحلى الشهد الشديد المذاق في شدة حلاوته وفرط عذوبته، حتى ليفسد القابلية، ويصد النفس عن الطعام، فنصيحتي إليك يا بني أن تحب باعتدال فإن أطول الحب عمراً أكثره اعتدالا، والمستعجل فيه كالمتباطئ سواسية. ها هي حبيبتك يا ولدي قد جاءت. إن قدميها من الخفة حتى لا أحسب شعلة الحب بمثلها منطفئة. إن العاشق ليطأ الشوك ولا يحس وخزا، فإن مع الغرور خفة، ومع الحب صبراً عجيباً.

ولما تم عقد القران أقبل العروسان على الراهب الكريم الورع الصالح بشكرانه من صميم قلبيهما المفعمين بالفرح والسرور. وصاح روميو بجولييت قائلا:

- أواه يا حبيبتي جولييت.. إن كنت ترين في هذا الزواج ما أراه من السعادة، وكان لديك من القوة ما تستطيعين بها شرح ما بنفسك وبيان ما في جوانحك فتكلمي واجعلي لي نصيباً من أفراحك، أو من الأفراح المشتركة بيننا بعد هذا القران السعيد.

- إني لا أستطيع بيان مبلغ فرحي لأننا في غني عظيم ويسار عريض، وكنوزنا لا تفنى بهذا الارتباط الذي ارتبطنا به، وقد بلغت من سعادتي مبلغاً لا أستطيع التعبير عنه، ولا عن بعضه.

القسم الثالث

-١-

وكان بنفوليو ومركوتيو عقب انصراف روميو قد سارا في طريقهما يريدان الذهاب إلى قصر مونتاجو للغداء فيه. وكان اليوم صيفا، والحر شديداً، يلفح الوجوه.. فقال بنفوليو لصاحبه:

- دعنا نسرع يا صاح فإن الحر يزهق الأنفاس والكابوليتيون يملئون الشوارع في هذه الساعة، فإذا التقينا بهم فقد نشتبك في شجار معهم لأن هذا الحر يهيج الدم في العروق وتضيق منه الصدور.

فضحك مركوتيو وأجابه قائلا:

- إن مثلك والله كمثل الذي يدخل حانة فيضع سيفه على المنضدة أمامه ويقول اللهم لا تحوجني إليه! ولكنه لا يلبث من الكأس الأولى أن يمتشقه حين لا ضرورة ولا حاجة مطلقة إلى امتشاقه.

قال متهكما:

- أفأنا مثل هذا الرجل؟

- نعم أنت. فإنك حاد الخلق سريع الغضب ككل من حوتهم هذه البلاد. وإنك لسريع الهياج والتحفز للغضب كما أنت سريع الغضب للتحفز والتهيج.

- وماذا أيضاً؟

– ولو كان في هذا البلد اثنان من طبعك وخلقك، لاسترحنا من هذا النوع كلية. لأن أحدهما كان بلا شك سيقتل الآخر.. أنت تتشاجر مع الناس لأتفه سبب. فلا تتردد في مبارزة أحدهم لأن لحيته أغزر شعرات أو أقل من لحيتك لأنه يكسر بندقا أو جوزاً وعيناك جوزيتان. بل أن رأسك لمليء بالمشاجرات كما تمتلئ البيضة بالمح. ولقد طالما ضرب رأسك في الشجار كما يضرب البيض حتى يختلط محه ببياضه. ألم تتشاجر مع رجل لأنه سعل في الطريق. ومع آخر لأنه أقلق كلبك من نومه وكان يهوم تحت الشمس. ألم تشاجر حائكا لأنه كان مرتديا صداره الجديد قبل العيد. ومع غيره لأنه كان يربط حذاءه الجديد برباط قديم. هذا هو شأنك وتلك هي حدة خلقك. ومع ذلك تنصح لي أنا ألا أتشاجر وتلقنني دروساً في مغبة المشاجرات؟!

فقال بنفوليو:

– لو كنت شديد النزوع إلى المشاجرات إلى هذا الحد الذي وصفته لكان من السهل على أي إنسان أن يستأجر خلفي هذا ساعة من الزمن ليتشاجر مع من يشاء.

– ولم لا.. مصاريفها بسيطة على كل حال!

فصاح بنفوليو:

– كفى كلاما. فإن بعض الكابوليتين قادمون نحونا.

فقال مركوتيو:

– لست أحفل بأحد منهم.

وكان القادم هو تيبالت في جماعة من عشيرته فما أن لمحهما حتى دنا منهما

وهو يقول لأصحابه:

- اتبعوني حتى أتحدث إليهما.

والتفت إليهما قائلا وهو يتحفز للشر:

- لي كلمة أحب أقولها لأحدكما.

فأجابه مركوتيو:

- أتريد كلمة فقط مع أحدنا، لماذا لا تشفعها بشيء ما، لماذا لا تجعلها كلمة وطعنة.

- إنني على أتم الاستعداد لذلك يا سيدي إذا أوجدت لي المناسبة ومهدت لي الفرصة.

- أليس في وسعك أن تخلق أنت مناسبة لا أن تعطاها؟

فصاح به تيبالت غاضبا:

- كفى يا مركوتيو. إنني أعلم أنك مؤتلف مع روميو.

فأجابه مركوتيو بمثل لهجته قائلا:

- أتقول مؤتلف، يعني أنك تريد أن تجعل منا عازفين موسيقيين، ولكن تأكد أنك لن تسمع منا إلا «نشازا»، ونغما مختلفا وألحانا صاخبة. مؤتلف ماذا يا هذا..؟ أهذا كلام تقوله؟

فتوسط بينهما بنفوليو قائلا:

- تذكرا أنكما في شارع عام، فإما أن تنتحيا ناحية بعيدة وتتكلما بعقل وهدوء، أو تنصرفا فإن الأنظار هنا محدقة بكما.

فصاح به مركوتيو قائلا:

– ما خلقت أعين الناس إلا لتنظر وتحدق. فلينظروا وليشاهدوا فإني لن أتحرك خطوة واحدة من هذا المكان نزولا على أمر أحد.

ظهر روميو قادما من الشارع ذاته، وكان قد فارق جولييت عقب عقد القران وتركها تعود وحدها إلى قصر أبيها خشية من الظهور معها أمام الناس. وما أن لمحه تيبالت حتى ألتفت إلى بيفوليو ومركوتيو فقال:

– ليس بيني وبينكما أيها السيدان ما يدعو إلى الشجار، فما هو ذا غريمي قد جاء.

ولكن مركوتيو أجابه بقوله:

– يمين الله ما أنت لمثله بكفء، وإنك تواجه رجلا بمعني الكلمة إن أنت تحرشت به أو طلبت منازلته.

غير أن تيبالت لم يرع له وانثنى إلى روميو، وكان قد اقترب منهم فقال:

– يا روميو إن البغض الذي أضمره لك لا يجعلني أجد عندي لك من وصف أنسب من قولي أنك نذل جبان.

فتمالك روميو غضبه وأجابه بقوله:

– وإن الحب الذي أحسه لك يا تيبالت يحملني على غض الطرف عن إهانتك هذه فلا أحاسبك عليها. لست نذلا جباناً. أستودعك الله فأنت إذن لا تعرفني.

قال ذلك وهم بأن ينصرف، ولكن تيبالت أمسك به قائلا:

– ليس هذا يا فتى بالعذر الذي يغسل الإهانة التي ألحقتها بنا فاستدر لنا وامتشق حسامك

غير أن روميو ظل على رباطة جأشه، وراح يقول:

– حاشا لي أن أكون قد أهنتك ولكني أحبك أكثر مما تتصور حتى تعرف يوما من الأيام سبب هذا الحب الذي لك في صدري. فهلا أرضاك هذا القول مني أيها الكابوليتي، وإنه لاسم أعزه اليوم كإعزازي لاسمي نفسه وأكرمه تكريما.

فغضب مركوتبو من موقف صديقه روميو ومسالمته؛ فصاح به قائلا:

– ما هذا الهدوء المهين وهذه الضراعة البغيضة وهذا التذلل المعيب. يا تيبالت يا صياد الفيران. هل لك في مبارزتي؟

فأجابه هذا بقوله:

– ماذا تريد أنت مني؟

– يا ملك الهررة لست أريد شيئاً غير خطف روح من أرواحك السبع.. فأنت كالقط كثير الأرواح. وأما الأرواح الست الأخرى فليس لها عندي غير التجفيف والتقديد فهلا نزعت سيفك من غمده وتقدمت للطعن والضرب؟

وراح يخرج حسامه، فصاح تيبالت: "أنا لك"، وأخرج حسامه هو كذلك. ولكن روميو حاول أن يمسكهما عن القتال فجعل يصيح بمركوتيو:

– خل القتال جانبا يا مركوتيو. أستحلفك بالله أن تترك المبارزة.

ولكن مركوتيو لم يأبه بتوسلاته وأقبل يبارز خصمه ويبارزه غاضباً محتدما. والتفت روميو من شدة الجزع ومخافة العاقبة إلى بنفوليو فأهاب به قائلا:

– ادخل بينهما يا بيفوليو بالله عليك فاحملهما على ترك المبارزة.

وجعل هو يصيح:

- مركوتيو.. تيبالت العار عليكما يا رجلان.. ألم تعلما أن الحاكم قد منع المبارزات في شوارع المدينة. امسكا أيها الصديقان..

وأمسك روميو بذراع تيبالت ليمنعه من القتال، ولكنه راح من تحت ذراع روميو يطعن خصمه فأصابته من سيفه طعنة نجلاء وانسل هاربا مع الذين جاءوا معه. وخر مركوتيو جريحا. قال:

- لقد جرحت فاللعنة على سيفيكما معا إنني ميت لا محالة، أفتراه ذهب هاربا وهو سالم لم يصب بسوء.

وكان جزع بنفوليو بالغا فأقبل على صاحبه يقول متألما:

- ماذا بك، هل ترى الجرح شديداً؟

- كلا إن هو إلا خدش بسيط.. أين غلامي؟ اذهب يا وغد استدع لي طبيبا مداويا.

فانصرف خادمه لا يلوي على شيء. وراح بنفوليو يشجعه بقوله:

- لا عليك يا صاح، إنه ليس بجرح بليغ كما تتصور.

قال متهكما ممازحاً وهو في سكرات الموت

- نعم، ليس بذي بال. جرح لا هو عميق كالبئر ولا واسع كباب الكنيسة، ولكنه يكفي لمفارقة الحياة، سل غداً عني لتعلم أنني الملحود الدفين. لقد انتهيت من هذا العالم.. فاللعنة على عشيرتيكما سواء بسواء. يا عجبا.. أمثل هذا الكلب أو الفأر أو الجرذ أو القط يخدش رجلا فيميته. إنه لمغرور، شقي، أثيم، جبان يبارز بالبرجل والمسطرة وقواعد الحساب.

فلماذا يا روميو تدخلت بيننا.. لقد أصابني الجرح وأنت ممسك بي. جاءني من تحت ذراعك.

قال روميو متأوها حزينا موجعا:

– لقد كنت أقصد الخير.. إن أردت إلا الإصلاح ما استطعت.

فقال مركوتيو لصديقه بنفوليو:

– احملني يا صاحبي إلى بيت قريب من هنا فإني أخشى أن يغمى علي.. لعنة الله على بيتيكما معا.. فقد جعلاني طعاما للديدان. بيتاكما اللعينان. إني..

وبدأ الجريح يهذي وتغشاه الغاشية. فبادر بنفوليو إليه فاحتمله بين ذراعيه وانطلق به يريد أقرب دار من الموضع. ولبث روميو وحده وقد دارت به الأرض، وتولاه ألم شديد، فجعل يناجي النفس قائلا:

– رباه..! لقد جرح صديقي وقريب الأمير بسببي جرحاً يوشك أن يذهب بحياته. وسوف تسوء سمعتي ويسخر الناس مني لإهانة تيبالت لي وسكوتي عنها، وذلتي له. تيبالت الذي أصبح من ساعة واحدة لي نسيبا. أي جولييت.. لقد جعلني حسنك جباناً مخنثاً وأخمد جذوة شجاعتي وأذلني إذلالاً..!

وفي هذه اللحظة عاد بنفوليو، وهو مكفهر الوجه دامع العين، فابتدر روميو بقوله:

– أي روميو.. لقد مات مركوتيو الشجاع الباسل الأبي الحمي الأنف.. مات الصديق الخفيف الروح المتهكم البارع الماجن كأنما قد سخر اليوم من الأرض وتهكم بالحياة الفانية وطلب فوق السحاب مظهراً.

فتأوه روميو وماد العالم به فلم يجد ما يقوله غير اللوعة والأنين. وقال

أخيراً:

– إن هذا اليوم الأسود لهو بداية حياة شقاء مستمر وأيام سود حالكات. والغاديات أكثر لعمري من الرائحات.

وإنه لكذلك متفجع محزون مسلوب الرشد مما جرى أمام عينيه، ولم يتقدم لنصرة صاحبه، إذ عاد تيبالت كأنما يريد شجاراً آخر أو يطلب روميو لمنازلته. فما أن رآه روميو بادره بقوله:

– الآن بعد أن قتلت مركوتيو فلا رفق ولا هوادة، ولا مسالمة ولا مودة، الآن يا تيبالت خذ صفة النذل الجبان التي أعطيتنيها منذ لحظة سلفا منك وعناداً. إن روح مركوتيو الساعة لترف فوق رؤوسنا مترقبة روحك في أثرها، فأما أن تذهب إليه أو أذهب أنا، أو نذهب معا.

فصاح تيبالت محتداً:

– لقد كنتما في هذه الدنيا كمؤتلفين فلتكونا كذلك في الآخرة.

واستل كل منهما جسامه واشتبكا في مبارزة حامية، فلم يلبث روميو أن جندل خصمه فهوى صريعا يتخبط في دمه. ولما شاهد بنفوليو هذه الخاتمة المحزنة أهاب بروميو قائلا:

– أسرع من هنا ولا تبطئ يا روميو؛ فإن الناس لن يلبثوا أن يجتمعوا علينا. وإن الحاكم سيصدر عليك حكم الإعدام لا محالة إذا أنت مكثت ولم تطلب فراراً. هيا انطلق قبل أن يقبضوا عليك.

فاشتدت لوعة روميو, وأخذته الحيرة من كل مكان فراح يقول:

– أواه.. إنني ألعوبة في يد القدر!

فعاد ينفوليو يناشده الفرار قائلا:

- لا تمكث يا روميو لحظة فيقيض عليك.

فلم يجد روميو بدا من الإذعان فانطلق لا يلوي على أحد واختفى عن الأبصار. وما كاد يحتجب عن الموضع حتى ازدحم الناس، إذ انتشر النبأ بينهم وجاءوا من كل حدب يهرعون، وفي أثرهم وصل عميدا العشيرتين وزوجاهما وأفراد بيتيهما، كما وصل الأمير ليرى ما الذي جرى. فقال هذا مسائلا في غضب:

- أين الجناة الذين كانوا البادئين في هذا الحادث؟

فتقدم بنفوليو بين يديه فقال:

- أصلح الله الأمير إني كنت من حاضري الحادث من بدايته إلى نهايته فشهدته رأي العين فها هو ذا الرجل الذي قتله روميو لأنه قتل قريبكم مركوتيو الشجاع الباسل الكريم.

فلما رأت السيدة كابوليت تيبالت طريحاً مضرجا بدمه صاحت قائلة:

- أواه.. من رأى.. ابن عمى تيبالت.. زوجاه. لقد طل دم أهلك أيها الأمير اثأر لدمنا من القتلة آل مونتاجو إنك العادل الكريم.. واابن عماه.. واابن عماه.

فالتفت الأمير إلى بنفوليو قائلا:

- إن تيبالت الذي قتل من كف روميو خاطب قاتله بحدة وهاجمه بعنف. على حين كان روميو يكلمه برفق ويطلب إليه أن يتروى في الأمر ويتبصر في عاقبة هذا الشجار الطائش ويذكره بإنذار الأمير وغضبه. وكان في ذلك كله هادئا رابط الجأش متوسلا متضرعا. بينما كان تيبالت هائجاً أصم لا

يستمع إلى رجاء روميو وتضرعه. وانثنى يشهر حسامه في وجه مركوتيو، وكان هذا قد غضب واحتد فتلقاه هو كذلك بسيفه. فما كان من روميو إلا أن صاح بهما مناديا إياهما بأن يكفا عن المبارزة. وتوسط بينهما ليعودا إلى رشدهما. ولكن تيبالت تغفله وراح يطعن مركوتيو من تحت ذراع روميو طعنة قاتلة وأطلق للريح ساقيه، ولكنه ما لبث أن عاد إلى روميو وكان هذا قد فكر منذ لحظة في أخذ الثأر منه فلم يكد يراه حتى أقبل عليه يبارزه وما عتم أن قتله وفر هاربا. هذه هي يا سيدي الأمير قصة الحادث فإن كنت كاذبا فمر بموتي.

فقالت السيدة كابوليت:

– إن بنفوليو قريب لعشيرة مونتاجو فهو لتحيزه كاذب في روايته. فقد تألب عشرون منهم في هذه المعركة على رجل واحد فقتلوه ولو لم يتكاثروا عليه لما نالوا منه شيئاً. إنني أسأل العدالة أيها الأمير.. لقد قتل روميو تيبالت ومن يقتل يُقتل لا محالة.

فأجابها الأمير قائلا:

– لقد قتل تيبالت وهذا قتل مركوتيو فمن يدفع ثمن دمه الغالي الآن؟

فقال الشيخ مونتاجو:

– إن كان لا بد من قصاص فإن روميو ليس بمستحق له أيها الأمير فقد كان لمركوتيز صديقا وكل خطئه أنه قد نفذ بيده ما كان القانون يقتضيه.

فأجاب الأمير:

– ولهذا نأمر بنفسه في الحال من المدينة. لقد جرت بغضاؤكم على مصابا. في قتيل مضرج أمامكم بدمائه. ولكني قد أخذت بالرحمة في أمركم فاكتفيت

بهذا الحكم الذي أصدرته. ولكني بعد اليوم سوف أصم أذني عن توسلاتكم ومعاذيركم. ولن تجدي دموعكم ولا تضرعاتكم في التغاضي عن آثامكم وجرائمكم. فليرتحل روميو من المدينة ولا يتلكأ. وإلا فإنه الهالك حتما إذا قبض عليه باقياً فيها. فاحملوا الجثتين واحترموا أمرنا إن الرحمة لتروح قاتلة حين تعفو عن القتلة السفاكين.

واستدار الأمير منصرفاً وتركهم في حيرتهم.

-٢-

وكانت جولييت طيلة النهار فرحة مغتبطة بقرانها بروميو، فلم تدر ما حدث، ولم ينته إلى علمها نبأ ذلك الشجار الدموي الرهيب الذي جرى، وإنما أقامت ترتقب مغيب الشمس لزورة الليل التي وعدها زوجها وأعد سلم الحبال ليرقاه إليها تحت جنح الظلام. فلما مال ميزان النهار إلى المغرب وأخذ الليل يرخي سدوله طلعت جولييت إلى البستان في لهفة على مجيء روميو مناجية الخاطر بقولها:

- أيتها الجياد المتقدة القوائم، المستعرة السوق، هيا اركضي صدراً لصدر نحو مسكن الشمس ومأواها، وبيتها في الليل ومثواها، فما يلهب ظهورك بسياطه إلا «فيتون» حوذي الشمس وسائق جيادها، نحو المغرب وحدودها، هيا أيتها الجياد اركضي لتحملي الليل المحجب والظلام الغيهب، سراعاً غير متوانية. أيها الليل المسعف على الحب، مأمن العاشقين ومعوان المحبين، هيا أسدل أستارك الكثيفة، حتى لا ترى الأعين الخائنة، والأبصار المستكشفة، شبح روميو وهو واثب إلى أحضاني مختفياً غير منظور، فإن العشاق حداد الأبصار يلتمسون طريقهم في الظلام الدامس إلى مالكات قلوبهم، مستهدين ببهاء جمالهن وضياء حسنهن

الباهر. ولو كان الحب أعمى كما يقولون لكان أنسب ما يكون مع الليل، وأليق ما يروح مع الظلام. أيها الليل الرفيق أقبل، علم يا ليل المحبين، في ردائك الأسود الغامر، وثوبك الحالك الفضفاض. لتعلمني كيف أخرج عن خجلي. وأغادر حيائي وانزوائي. في أول لقاء بين عاشقين بريئين جمعهما القران في شركة واحدة. أيها الليل تعال احجب الدم المتصاعد إلى خدي بردائك. ودار الأرجوان الواثب إلى محياي بثوبك الحالك. حتى ليروح الحب الحي المستغرب جريئاً يحسب الحياء في غير الحياء. أيها الليل هلم اقترب. وأنت يا روميو تعال ولا تضطرب. هيا يا نهاراً في الليل. وبهاءً في الظلمة. وبياضاً في الحلكة المدلهمة. فإنك والله على أجنحة الليل أشد بياضا من برد المطر على ظهر غراب أسحم. أقبل أيها الليل الحاني الكريم المحب المكتحل الأسود الحاجب. وأعطني روميو وحين يموت خذه أيها الليل فاقطعه كواكب صغاراً. ونجوماً دقاقا تملأ الدنيا أنواراً. حتى ليروح وجه السماء. بهيا في أعين العالم كله فيحب الناس الليل ويعرضوا عن الشمس الفخور المتباهية. أواه. لقد اشتريت صرح الحب ولكني لست أملكه، واقتنيته ولكني لم أنعم بعد بسكينه. حتى لقد مللت هذا النهار بطوله كما يمل الطفل الليلة التي تسبق العيد. مترقبا نهايتها. ليرتدي ثياب العيد الزاهية.

وفيما كانت مسترسلة في نجواها هذه، إذ قدمت مربيتها فرأتها جولييت من بعيد فقالت لنفسها:

– ها هي ذي المرضعة قادمة تحمل أخباراً وكل لسان يتحدث باسم روميو بليغ من السماء آياته وبلاغته.

وأقبلت المرضعة تحمل في يدها حبالا، فابتدرتها جولييت قائلة:

- ما وراءك يا مرضعة من الأخبار، وما هذا الذي في يدك، أحبالا أرى؟ أهذه هي الحبال التي أمرك روميو بإحضارها؟

- أي نعم.. أي نعم.. هذه هي الحبال.

وراحت تطرحها من يدها وتقلب كفيها. فروعت جولييت من مشهدها على هذه الصورة وصاحب بها قائلة:

- يا ويلتا!. ماذا جئت به من الأخبار؟. ولماذا تقلبي كفيك هكذا؟

فجعلت المرضعة تقول والهة:

- أواه..! أواه..! يا له من يوم مشئوم.. لقد مات! لقد مات..! وقد خاب أمرنا! لقد خاب أمرنا.! واأسفاه.! لقد ذهب.! لقد قتل.! لقد مات.!

فظنت جولييت أنها تعني حبيبها روميو فدوت في جوائحها الصاعقة وكادت الأرض تميد بها، فقالت:

- هل بلغت القسوة من السماء إلى هذا الحد فمنعت سعادتنا، ونقمت منا هناءتنا؟

- لم تكن السماء هي القاسية، ولكن روميو هو الذي قسا.. آه..! روميو.. من كان يظن.. من كان يظن؟.

فلم تدرك جولييت مرادها فعادت تصيح بها قائلة:

- أي شيطان أنت حتى تعذبيني على هذه الصورة الجهنمية. ماذا تريدين بهذا الذي ترددينه. هل قتل روميو نفسه؟ ألا قولي نعم أولا فحسبي منك كلمة واحدة منهما لتقضي بسعادتي أو تقضي بشقائي.

- لقد رأيت الجرح بعيني هاتين. رباه.. هنا في صدره المتفتح، وشهدت جثته

المضرجة بالدم الزكي. يا له من مشهد أليم، لقد رأيته شاحباً غارقا في بركة من دمائه فأغمي علي من مشهده.

فرفعت جولييت بصرها إلى السماء وراحت تقول:

- أيها القلب تمزق.. أيها القلب الكسير المسكين تحطم ولا تتردد ولا تتأخر. ويا عيني احتبسا عن النظر، وافقدا في الحال البصر. ويا جسدي الخبيث إلى الأرض عد ولا تصطبر، وقف عن الحياة. وانقطع عن الحركة، واكفف عن الخطر، ليضمك مع روميو نعش واحد في قبر..!

بينما انطلقت المرضعة في وله تقول:

- آه يا تيبالت آه يا تيبالت.. يا أعز الناس على النفس وأغلى بني البشر. تيبالت المؤدب اللطيف المعشر. السيد الأروع العظيم القدر، ما كنت أود أن يمتد بي زمني حتى أراك نزيل الحفر!.

فما كادت جولييت تسمع هذه الكلمات المتناقضة مع شعورها الذي سرى في خاطرها حتى بهتت وانثنت تقول:

- ما هذا العاصف الذي يهب من ناحية مضادة. فهل قتل روميو وهل مات تيبالت؟ أبن عمي العزيز وحبيبي الغالي؟ فيا صور الآخرة أذن بساعتها الدانية، وأعلن قضاء الله في دنياي الفانية، إذ من ذا الذي يبقى حيا، وقد ذهب هذان من الدنيا؟

- لم يمت غير تيبالت، أما روميو فقد حكم عليه بالنفي لأنه هو الذي قتله

فصاحت جولييت من شدة الرعب:

- رباه. هل سفكت يد روميو دم تيبالت؟

– نعم. وا أسفاه، نعم.

فما كادت جولييت تسمع ذلك حتى أدركت أن هوة عميقة قد قامت بينها وبين روميو، وأخذها من الخوف على ابن عمها ما غلب على حبها له، ورجفت أعصابها من هول ما طرق سمعها فصاحت تقول:

– رباه.. أيها القلب الذي يشبه الأفعى في وجه يشبه الزهرة اليانعة، هل يتصور الخاطر أن يكمن ثعبان خبيث كهذا في شق جميل، وكهف بديع يفتتن العين ويأخذ البصر.. روميو.. أيها الظالم الجميل.. أيها الملك الرجيم كالشيطان. أيها العقاب في صورة الحمامة المطوقة، واليمامة الوادعة. أيها الحمل المفترس كالذئب. أيها الشيء الحقير الزري في المظهر الرائع السماوي. لقد اختلف مخبرك مع مظهرك فكنت قديسا لعينا، وشقيا كريما. أيتها الطبيعة ماذا لعمرك أنت صانعة في جهنم، وهاأنت ذي في هذه الدنيا قد ركبت روح شيطان في صورة جميلة من اللحم والدم.. من ذا رأى يوماً كتابا أسوأ ما تكون مادته في أروع ما يكون غلافه وأبهى ما تكون جلدته؟.. يا لله من الزور كيف يسكن في صرح ممرد وقصر تأخذ العين روعته؟

– لا عجب يا ابنتي فليس للرجال عهد. ولا أمان كلهم خائن ناكث بعهده. وكلهم مراء منافق يظهر غير ما يبطن. رباه.. أريد شربة ماء. فإن هذه الأحزان قد أحالتني عجوزاً. العار عليك يا روميو والشنار والخزي المبين!

ولكن جولييت لم تطق سماع هذه الكلمات في حق زوجها فغضبت أشد الغضب.

– قطع الله لسانك على هذه الدعوة الخبيثة. فما خلق روميو العار ولا هو

أخو شنار كما تقولين، فإن العار والله ليستحي ويخجل من أن يعلو جبينه، أو يجلس فوق عارضه. لأنه عرش لا يتوجه غير الشرف، إن الشرف هو سيد ما في هذا العالم جميعا. رباه.. ما أظلمني حين أنحيت باللائمة عليه.

– أو تمدحين قاتل ابن عمك؟

فصمتت جولييت لحظة وقد تنازع نفسها عاملان مختلفان: عامل الألم من روميو والموجدة عليه. وعامل الإيمان به والسكون إلى حبه. فأنشأت تقول:

– أي لسان سيترطب باسمك إذا كنت أنا زوجك التي لم يمض زواجها بك غير ساعات ثلاث قد لاكته بين ماضغيها وشوهته تشويها؟.. ولكن أيها الشقي لماذا قتلت ابن عمي. بل لقد كان ابن عمي الشقي قاتلا زوجي لو أنه تمكن منه. أيتها الجموع الطائشة ارجعي إلى نبعك الذي استفضت منه. ويا عبراتي الحمقاء عودي إلى العين التي جريت منها فإن قطراتك من حزن وكان أولى أن تكون من فرح، فقد نجا روميو من كف تيبالت وكان يطلب له الموت ويود لو قضي عليه. ألا حسبي هذا من عزاء. فعلا إذن البكاء. لولا كلمة هي شر من موت تيبالت. كلمة قتلتني أو دنت بي من حدود الموت. كلمة وددت لو استطعت لها نسيانا. ولكنها تلح على خاطري بين الحين والحين كما تلح ذكريات الإثم على أذهان المذنبين. "نفي روميو؟"..ليت الفجيعة فيه انتهاء عند الموت. إن هذه الكلمة وحدها لتحمل معنى يوحي إلى النفس بأن كل عزيز قد مات. وكل أب وأم وقريب ومحب قد ارتحل من الأرض. بل ليس لهذه الكلمة في معنى الويل من مقياس ولا مقدار ولا حد ولا في اللغة ما بقي بالتعبير عن هذا المصاب الأوحد.. ولكن أين أبي يا مرضعتي الساعة وأين أمي؟

– يبكيان تيبالت وينوحان عليه فهل تريدين الذهاب إليهما: أنني على

استعداد للذهاب بك نحوهما.

– ليغسلا جراحه بدموعهما حتى تجف من عينيهما العبرات. وعند ذلك تبتدئ دموعي حزنا على نفي روميو وأسى على فراقه. خذي هذه الحبال بعيداً، فقد خدعنا الدهر أنا وهي في مرادنا بنفي روميو عنا.. وآه لك أيتها الحبال المحزنة الأليمة. لقد أراد أن يجعل منك سبيلا إلى فراشي ولكني اليوم أرملة تموت بعذرتها. كلا.. كلا.. أيتها الحبال هيا إلى فراش عرسي، ومهاد زفافي، لكي أزف إلى الموت ما دام روميو عني مقصيا.

فقالت لها العجوز مواسية:

– هيا يا جولييت إلى مخدعك، وأنا ذاهبة لكي أبحث عن روميو وأجيء به لكي يواسيك وينفي الهم عنك فإني أعلم أين هو. وثقي بأنه سيكون الليلة هنا. إنني ذاهبة الساعة إليه، في مخبئة عند الراهب لورانس.

فسرى عن جولييت وقالت:

– سيرى إليه وأعطيه هذا الخاتم، وخبريه بأن يحضر للوداع الأخير قبل الفراق.

فتناولت المرضعة الخاتم منها ومضت تنفذ مشيئتها.

–٣–

لم يكد روميو يتولى هاربا من مكان الحادث حتى خطر له أن يلتمس مخبأ يختفي فيه إلى حين، وهداه الفكر إلى صومعة الراهب لورنس خارج المدينة، فمضى إليها مسرعاً يتلفت من حذر وخيفة. وآواه الراهب إليه وأنزله في صومعته، وخرج ليتجسس الخبر. فلقي مرضعة جولييت في طريقه فعلمت منه

أن روميو مختبئ عنده، وعلم هو منها بنبأ الحكم الذي أصدره الأمير على روميو، كما عرف من الناس تفاصيل الحادث الذي كان سببا فيه. وما لبث الراهب أن عاد إلى كوخه حزينا شديد التأثر لهذا الفتى الباسل الذي حكم عليه بالنفي ولما تمض ساعات معدودة على قرانه بجولييت على يده، ولما بلغ الصومعة نادى روميو قائلا:

- تعال يا بني. بل أقدم أيها الرجل الذي اصطلحت عليه الأحزان وزففناه إلى الخطوب والأشجان.

فخرج روميو إليه متلهفا يقول:

- وما وراءك من الأخبار يا أبي؟ وماذا حكم الأمير به وأي جديد من النائبات يريد النزول بساحتي؟

- حقا يا بني لقد ألفت الأحزان وألفتك، وتحالفت الخطوب عليك لقد جئتك بخير ما قضى الأمير به.

- وأي قضاء له أقل من القضاء بالموت؟

- لقد انبعث من بين شفتيه حكم أخف.. وقضى بقضاء أرحم وأرفق فلم يحكم بالموت، ولكنه حكم بالنفي.

فما كاد روميو يسمع ذلك حتى صاح صيحة المأخوذ المروع قائلا:

- أتقول النفي يا أبت.. وأولى بك أن تشفق فتقول الموت، فهو والله أرحم من النفي وأهون.

- لن يكون منفاك إلا من فيرونا وحدها، والدنيا يا بني واسعة وأرض الله فسيحة الجنبات فتدرع بالصبر.. وتجلد فإن الله مع الصابرين

فتوجع روميو وتفجع قائلا:

- فيرونا هي العالم عندي، وليس وراء جدرانها دنيا أخرى ولا فضاء، وإنما من خلفها جهنم وجحيم وعذاب وشقاء، وإذا نفيت من فيرونا فقد نفيت من هذا العالم كله، والنفي من العالم هو الموت والفناء، فلا تقل يا أبت قد نفيت، فإن هذا لخطأ في التعبير، ووهم في الاصطلاح. أن يسميك الموت بالنفي هو أشبه شيء بقطع رأسي بفأس من الذهب، والابتسام على مقتلي والعطب، وتلقيب الموت بغير ما ينادي به ويلقب

فصاح به الأب لورنس قائلا:

- يا لك من جاحد كافر بالصنيع، إن القانون يقضي عليك بالموت ولكن الأمير كان بك رحيما، وعليك حانيا، فطرح القانون جانبا، وأحال كلمة الموت نفياً. وهذه هي الرحمة المتناهية ولكنك قد عميت عن رؤيتها.
- ليست هذه رحمة، ولكنها العذاب الأوفى والجحيم الذي لا يطاق ولا يرتضى، الجنة هنا، وجوليت فيها، وعداها جهنم لأنه لا يحتويها. كل من يسكن فيرونا، من كلب أو قط أو فأرة، وكل خسيس وصغير ومهين من سكنتها، سوف يرون جولييت إلا روميو هو وحده المحروم من رؤيتها، السليب من متعة قربتها. إن الذباب لأحق وأشرف وأطهر وأنقى من روميو لأنه طليق يطن حولها. ويرف عليها. أما روميو فهو وحده الممنوع من الدنو منها والشخوص إليها، وإن الذباب ليهوي على ناصع يديها ويختلس البركة من شفتيها. فتذوده عنها حياء. وتطرده تعففا ونقاء. وتحسب قبلاته نكراً وذنبا. ولكن روميو ليس له حتى ما للذباب، لأنه منفي مبعد لا يستطيع دنوا ولا حق له في اقتراب. بئسا لروميو.. لقد سلب حتى مما يباح للذباب. وسيم الخسف والتشريد والعذاب. ثم مع هذا

كله لا تريد أن تسمي النفي موتا؟ أليس عندك شراب من سم زعاف أو خنجر حاد النصل مرهف. أو وسيلة من وسائل الموت الحتف. وسريع التلف. غير كلمة النفي هذه التي تصف لكي تريحني من الحياة؟.. أيها الراهب إن المحكوم عليهم بالشواء في جهنم هم الذين يستخدمون هذا التعبير ويستعملونه في الرعب والتخويف والهول والترهيب والتعنيف؛ فكيف بك أنت ذي القلب الرحيم والعاطفة الدينية والإحساس الكريم والصداقة السامية. تسول لك النفس أن تمزقني بها تمزيقا؟ وتقطعني بها أربا؟!

فصاح الراهب به قائلا:

- حسبك أيها العاشق المفتون ودعني أقول لك كلمة واحدة.

- أواه يا أبي. أتريد أن تتكلم عن النفي كلمة أخرى؟

- بل أريد أن أجعلك تتدرع من شرها. وتتقي بأسها وسيرها، أريد أن أعمد إلى الفلسفة وتأثيرها، والحكمة وسحرها. للتسرية عنك، وتخفيف وقع الحكم بالنفي على خاطرك.

فصاح روميو به قائلا:

- أي جدوى يا أبت من الفلسفة، ولعنة الله على الحكمة، فهل في وسع الفلسفة، أو في قدرة الحكمة أن تخلق لي جولييت أخرى، أو تنزع لي بلدا من مكانه، أو تغير قضاء من أقضية الأمير. فلا تحدثني عن الفلسفة إنها أعجز من أن تفعل في أمري شيئاً.

- إن المجانين لا آذان لهم.

- وكيف تكون لهم ما دام العقلاء ليس لهم أعين يبصرون بها.

– ولكن دعني أبحث معك في حقيقة حالتك.

فتململ روميو وأجاب بقوله:

– ولكن كيف يا أبت تتحدث عما لا تشعر به أو تحس، فلو أنك كنت شابا مثلي، وكانت لك مثل جولييت زوجا، ولم تمض على زواجك بها غير ساعة من الزمان، وقتلت تيبالت بيدك، وحكم بالنفي عليك، لجاز أن تتكلم، ولصح لك أن تقطع شعرك تقطيعا، وترتمي على الثرى ارتماء كما تراني أفعل الساعة لكي تقيس المسافة المطلوبة لقبر تدفن فيه حيا.

وتهالك روميو على الثرى وراح يتمرغ تمرغ المحتضر وهو يئن ويبكي مليا، حتى لم يتمالك الراهب نفسه من البكاء رحمة به وإشفاقا عليه، وفيما هو كذلك إذ دق الباب؛ فقال الراهب:

– انهض يا بني من مكانك فإن قادما بالباب. واذهب يا روميو العزيز اختبئ في جوف الصومعة.

فصاح روميو قائلا:

– وعلام يا أبت الاختباء.. ما أنا والله ببارح الأرض حتى تلفني غمائم أنيني. وتحجبني أنفاس شهيقي وزفيري، من أعين الرائين وكشف الكاشفين.

وعاد الطرق يدق الباب، ولا يزال روميو طريحا لا يريد قياما. فأوجس الراهب خيفة وراح يهيب به

– ألا تسمع الدقات بالباب. انهض يا بني لئلا يقبضوا عليك.

والتفت نحو الباب قائلا:

– انتظر لحظة أيها الطارق.

ثم رجع إلى روميو فاحتمله وهو يقول له:

- ادخل خلوتي ولتكن مشيئة الله.

وتعالى الدق بالباب مرة أخرى. فذهب إليه الشيخ وهو يقول:

- من هذا الطارق العنيف؟ وماذا يريد ومن أين هو آت؟

فسمع صوت مرضعة جولييت من الخارج تقول:

- إنني قادمة من قبل السيدة جولييت برسالة فدعني أدخل.

- مرحبا إذن بك.

- نبئني يا سيدي الراهب الكريم أين زوج سيدتي فإني أبحث عنه.

- هناك ترينه طريحا غارقا في دموعه.

- لهف نفسي عليه.. إنه في الحالة ذاتها التي خلفت مولاتي جولييت عليها، فوا حزناه لهما وأساي عليهما، تركتها باكية منتخبة ضاقت الأرض في عينيها بما رحبت ولم يعد لها من رجاء.

فما أن تنتبه روميو من غاشيته وأحس وجود المرضعة حتى صاح بها:

- جئت أيتها المرضعة.

- أواه يا سيدي. أواه يا سيدي. الموت نهاية الجميع.

- أعن جولييت تتحدثين. فما وقع المصاب لديها، وما منزله من نفسها. أتراني قاتلا لوثت سعادتنا الوليدة بدم أهلها أو ما هو من دمها وعشيرتها الأقربين. خبريني أين هي الآن. وماذا تصنع الساعة وماذا تقول في حبنا الذي قضى عليه وهو في المهد؟

- أواه. إن سيدتي لا تقول شيئاً، ولكنها لا تكف عن النحيب، ولا تنقطع

عن البكاء، وترتمي على فراشها ثم تنهض منادية تيباليت، ثم تعود فتدعو باسم روميو وهي تتهالك على الفراش تنشج.

- كأن ذلك الاسم قد انطلق من فوهة قذيفة قاتلة فأرداها كما أودت كف صاحبه بحياة ابن عمها ألا خبرني أيها الراهب في أي موضع من هذا البدن يستكن الاسم لكي أشبعه بسيفي طعنا وضربا.

وراح يجرد سيفه من غمده ليقتل به نفسه، ولكن الراهب بادر إليه فأمسك به قائلا:

- اخفض يدك أيها المستيئس الأحمق. ألست رجلا. إن لك لهيئة الرجال. ولكن لك دموع النساء. وتصرفاتك النزقة تدل على الجنون وفقدان العقل الذي يتميز به الإنسان عن الحيوان. يا عجبا لك! امرأة شوهاء في صورة رجل كامل الخلقة غير مشوه، وحيوان هائج في صورتيهما معا، لقد والله عجبت لك إذ كنت حسن الظن بك جميل الرأي فيك. أقتلت تيبالت وتريد أن تقتل نفسك، وفي قتلك لها القضاء على المرأة التي تحيا فيك وتتفانى في حبك. إنك لتتسخط على مولدك وعلى السماء والأرض لأنها اجتمعت كلها اليوم عليك، وإنك لخاسرها جميعا بقتلك النفس التي حرم الله قتلها. العار عليك يا رجل. إنك لا تدرك حق بدنك وفضل حبك وكرامة عقلك الذي ينتفع كالمرابي بكل شيء فيك، ويستخدم كل مواهبك ويجمل سائر نواحيك، تريد أن تتخلي عن الشجاعة الجديرة بكل رجل فتقتل نفسك وتقضي على الحب الذي أقسمت على إعزازه، وحلفت جهد إيمانك على الوفاء بعهده، وتريد أن تصم الأذن عن سماع صوت العقل فيك، وهو زينة البدن والحب معا، فتشوهه بمسلكه في حقهما، وتفسد عليه فضله وجماله ومقداره بتركه يحطمهما ويهدم كيانهما،

وتجعله أشبه شيء ببارود في قذيفة جندي لا يجيد الإطلاق فيحدث حريقاً بجهله، ومصابا عظيما بقلة تبصره. بل أنك تريد أن تهد بيدك وسائل دفاعك وتحطم بنفسك استحكاماتك وتفر من الميدان هاربا. ألا أفق يا رجل واعلم أن جولييت التي أحببتها لا تزال حية ترزق. وقد كنت في سبيل الظفر بها تكاد تموت أسى وتقضي حزنا وغماً. ألا تحمد الله على ما صنع لك.. لقد مكنك من تيبالت، وكان يجوز أن يقتلك، وجعل القانون الذي يقضي بالإعداد عليك يرتد حانياً باراً بك. فيحيل الموت نفياً. أليس هذا كله حريا بأن يحملك على الحمد والاغتباط. إن رحمة الله ترعاك وبركات السماء لا تتخلى عنك. والسعادة تسايرك وتتجمل لك في أزهى ثيابها وأفتن مطارفها. ولكنك كالمرأة الشريرة المشاكسة الفاسدة الخلق. لا تحفل شيئاً من ذلك كله. وتروح تتسخط على الحياة. وتنقم على القدر. وتلعن الحب والحياة. فعلى رسلك يا هذا ولا تستحمق. واعلم أن المنية التي تريدها لنفسك منية شنعاء وخاتمة لا تليق بمثلك ولا يجدر الرضى عنها برجل على غرارك. فهلم أنهض واشدد من نفسك المترنحة. وعزيمتك المترددة الواهية واذهب إلى لقاء حبيبتك كما تواعدتما على اللقاء في مخدعها. هيا اذهب فواسها واطرد الهم عن نفسها. ولكن تنبه إلى الوقت حتى لا يفر منك. واعمل على أن يكون خروجك من المدينة إلى بلدة «مانتوا» قبل مطالع الضياء حتى لا ينكشف أمرك. وفي «مانتوا» فلتقم حتى يهبني الله الفرصة لإعلان خافية قرانك واسترضاء خصومك والتماس العفو من الأمير عنك واستعادتك من منفاك. ويومئذ ترجع إلى فيرونا مغتبطا مبتهجا قرير العين، وإن خرجت اليوم منها حزينا نادبا متفجعا. وأنت أيتها المربية اذهبي فاستبقيه، واقرئي سيدتك السلام واعملي أنت على أن يبادر القوم في الدار إلى مضاجعهم. فإن الحزن بلا ريب حاملهم

على التماسها. وها هو ذا روميو على أثرك قادم.

فصاحت المرضعة قائلة:

– يا الله! لوددت لو مكثت الليل كله بجانبك أيها الراهب الخبير العليم لكي أستمع إلى عظاتك، وأصغي إلى حكمك ومشورتك. فما أروع العلم، وما أبلغ الحكمة وفصل الخطاب. وأنت يا سيدي فلتطمئن فإني منبئة مولاتي بقدومك.

قال لها روميو:

– بل نبئيها أنني مرتقب منها ملامتها، فلتستعد بكل ما في نفسها من عتب وتأنيب ولوم

– ها هو ذا يا سيدي خاتم أمرتني مولاتي بأن أعطيك إياه. فهيا يا سيدي ولا تتردد فإن الليل يوشك أن يوهن.

وما أن انصرفت الخادم حتى قال روميو للراهب:

– ما أشد فرحي الآن بهذا الخاتم الذي منحتني إياه جولييت.

– أسرع الآن للقائها وليهنأك ليلك، واعمل على الخروج من المدينة قبل أن يفطن الحراس إليك، أو إذا طلع النهار عليك فاخرج إلى مانتوا متنكرا. وسوف أبحث عن خادم الأمين فأنفذه إليك بين حين وآخر ليحمل إليك أنباء الحوادث ما طاب منها وما أبهج، فهات يدك وتهيأ للذهاب. فإن الليل مدركك. وداعا يا بني وطاب ليلك.

فتأثر روميو من حديث الراهب وفرط حنانه عليه، وصافحه آخر مصافحة، وقال متأسفا محزونا:

– والله لو لم يدعين فرح هو أكبر من كل فرح في هذا العالم إلى جوار جولييت الساعة وقربها لما كان هينا على النفس فراقك أيها الأب الرحيم.. وداعاً.. وليقض الله بما يشاء..

–٤–

وكان الكونت دي باريس في تلك الساعة قد حضر إلى قصر كابوليت لزيارة الشيخ والإلحاح في استنزال رضاه عن زواجه بجولييت، غير مكترث بمصرع تيبالت ولما يمض عليه غير ساعات معدودة. وكان الشيخ كابوليت حزيناً كاسف البال، أحوج ما يكون إلى الراحة والتماس مضجعه، فأجاب الكونت موجزاً بقوله:

– لقد توالت الحوادث السيئة يا عزيزي الكونت بسرعة مباغتة لم نستطع معها أن ننقل ابنتنا جولييت من القصر حتى لا يفجعها نبأ مصرع ابن عمها العزيز تيبالت، وكانت تعزه الأعزاز كله، وكان على نفسها كريما غاليا وأحسبها الساعة لا تقدر على النزول إلينا، لما هي فيه من حزن واغتمام. والآن الوقت قد تأخر، ولولا زيارتك يا سيدي لكنت منذ ساعة في فراشي ضاجعا.

لما رأى الكونت دي باريس أن الوقت لا يناسب الحديث في أمر الزواج هم بالانصراف قائلا:

– حقا إن ساعات الحزن لا تناسب حديث الفرح. فأستودعك الله يا سيدي. وطابت ليلتك يا سيدتي.. وأرجو أن تحملي السلام إلى ابنتك العزيزة.

فأجابته السيدة كابوليت وكانت قد وافت زوجها منذ لحظة لتعلم ما الذي

أقدم باريس عليهما في تلك اللحظة:

– سأفعل يا سيدي، وغدا أعرف رأيها في هذا الأمر وأستطلع رأيها.. فمن الخير أن ندعها إلى حزنها الليلة.

وقال الشيخ على أثرها:

– إنني أؤكد لك يا عزيزي الكونت دي باريس أن ابنتي تحبك فإني القوام عليها. وطاعتها لي في كل أمر واجبة. بل لست من أمر حبها لك في شك مطلقا. فثق بذلك واطمئن إليه. وأنت يا زوجتي اذهبي إليها قبل أن تأوي إلى فراشك فنبئيها بأن الكونت يحبها، ومريها بأن تتأهب ليوم الأربعاء القادم، ولكن انتظري: في أي يوم من الأسبوع نحن الآن.

فقال باريس:

– نحن في يوم الاثنين يا سيدي.

فأجاب الشيخ ضاحكا:

– الاثنين.. لا يصلح الأربعاء إذن لأنه سريع والفسحة ضيقة.. فليكن إذن الخميس. نبئها إذن أن زواجها سيكون في يوم الخميس القادم بمشيئة الله. أيروقك هذا الميعاد يا بني العزيز.. وسوف لا نقيم احتفالا كبيرا.. بل حسبنا أن ندعو بعض الأهل والأصدقاء. فإن ذلك يكفي بالنسبة للحداد على تيبالت حتى لا يقول الناس أننا لم نراع وفاته وألهانا الفرح عن الحزن والأسى عليه. حسبنا بضعة أصدقاء ندعوهم إلى حضور القران فينتهي الأمر على أحسن حال. فماذا تقول يا عزيزي في يوم الخميس القادم؟

– وددت لو أن الخميس كان غداً.

– حسن جداً. فليكن الخميس إذن. واذهبي أنت إلى جولييت قبل أن تأوي

إلى فراشك فمهدي السبيل وهيئي المقدمات. طاب ليلك أيها العزيز.
وأستودعك الله إلى لقاء قريب.

وانصرف الكونت دي باريس فرحا مسروراً بأنه قد ظفر بجولييت الحسناء.

-٥-

ولنعد إلى روميو العاشق المنفي، وقد تركناه يريد لقاء حبيبته ليظفر منها بوداع قبل الرحيل. فما كاد روميو يشعر بأن الساعة قد دنت للقاء جولييت العزيزة حتى كان تحت الشرفة المعهودة في حديقة القصر. وما لبث السلم أن أدلي إليه فصعده إلى المخدع حيث كانت جولييت في ارتقابه. فلبثا يردان مناهل الحب ويرتشفان كؤوسه المترعة حتى لاحت خيوط النهار، فانتبه روميو من نشوته، وتهيأ للوداع. فقالت جولييت:

- رباه.. هل انتويت رحيلا؟ ولا يزال النهار منا غير قريب. إن هذا الصوت الذي سمعناه اللحظة هو صوت البلبل، وما هو بصوت القنبرة، وقد ألف البلبل أن يغني على شجرة الرومان هذه التي تلوح منا قريبة دانية، إذا ما أوغل الليل، فلا ترع أيها العزيز، فكذلك هو البلبل مع الليل شدواً تغريداً، أما القنبرة، فتشدو مع الصباح.

- كلا جولييت. إن صوت القنبرة إيذان بأن النهار قد لاح، وما كان صوت العندليب الذي نطمئن إليه. انظري يا عزيزتي صوب المشرق تجدين خيوطاً بيضاء تزين حواشي السحب المتراكمة لديه أن كواكب الليل قد غارت، ومصابيح الظلام أوشكت على انطفاء. ها هو ذا النهار الوليد قد استولى على أطراف قدميه فوق قمم الجبال المجللة بالغمام، الآن قد حان الرحيل، ومع الرحيل الحياة، أو قد حان البقاء وفي البقاء الموت.

- ما هذا الضياء للنهار ضياء. إنه كوكب سيَّار أرسلته الشمس ليكون لك حامل مشعل في الظلام وهاديا في فحمة الليل. ليضيء لك الطريق إلى مانتوا. فهلا بقيت. هلا مكثت، فإني مشفقة من وشوك الرحيل.

- مرحبا إذن بالموت فإنني به راض، وبمقدمه مغتبط، ما دمت تشائين. إن تلك الخيوط المتراصة في السماء ليست من عين الصبح منبعثة، ولاهي من أِشعة الشمس القادمة متنفسة، ولكنها من جبين الفجر منعكسة. وما هذا التغريد للقنبرة الصداحة مع الصبح بالشدو على مطالعه، ولكنه صدح البلبل في صميم الليل خلسة. إني والله على البقاء ألهف مني الرحيل والخروج التعس. فهلم أيها الموت ومرحبا بك. فإن جولييت هكذا، وبذلك قضت. هيا إذن يا روحي الغالية نتحدث فإن النهار منا بعيد كما تقولين.

فرجفت جولييت وانتفضت. وأنشأت تقول:

- بل هو النهار وتلك مطالعه. فاذهب يا حبيبي وأسرع. بل إنما القنبرة غنت باكية. وشدت حزينة لنا آسية. وأنذرت بفرقة دامية. ولقد أخطأ الذين قالوا إن القنبرة في الشدو حسنة التقسيم عذبة الأغاريد. فإنها اليوم تفرقنا وتقسم بيننا وتفصلنا عن بعضنا. ولقد قالوا إن القنبرة كالضفدعة تتغير عيناها ويتبدل ناظراها. فليتها غيرت ألحانا، وبذلت أنغاماً. ما دام شدوها إيذانا ببين ونذيراً بفراق. الآن يا حبيبي اذهب. فإن الضياء يتفتق، ونور الصبح يزداد

وتعانقا وامتزجت دموعهما واختلطت أناتهما. من فرط وجدهما. وتناسيا في لحظة العالم وما حوى. ولكن ما لبثا أن انتبها على دخول المرضعة في عجلة منادية:

– مولاتي!

فانتفضت جولييت قائلة: "ما بالك؟"

– إن مولاتي والدتك قادمة إليك الساعة، وقد أوشك الصبح أن يتنفس فحاذري من مباغتتها.

جولييت قائلة:

– أيتها الشرفة دعي الصبح إذن يدخل، ودعي الحياة إذن تخرج مولية.

وغمغم روميو قائلا:

– وداعا إذن جنة الدنيا وداعا. وداعا.. قبلة أخرى ثم أهبط.

وانثني يهبط من الشرفة. ودموع الأسى تنهمر من عينيه، فما كاد يغيب عن ناظرها حتى صاحت والهة:

– أكذا قد ذهبت يا حبيبي! أهكذا مضيت عني يا زوجاه. أواه.. لا تنس أن تبلغني أخبارك كل يوم في الساعة، فإن الدقيقة مستحيلة من الآن أياما طوالا. والساعة حقبة من الدهر متراخية. رباه سوف أصبح متقدمة في السنين قبل أن يقيض الله لي رؤية روميو بعد الآن.

قال قبل أن يختفي بالحجاب.

– وداعا، وثقي أنني لن أدع فرصة إلا انتهزتها لأرسل إليك تحياتي وسلامي أيتها الحبيبة العزيزة

– أواه. أو تحسبنا سنتلاقى مرة أخرى؟

– لست أشك في أننا متلاقيان، وأن الله سيجمع شملنا، لنتذاكر أيام أحزاننا هذه وهمومنا فتزيدنا على الحب حبا وعلى نعمة البقاء سعادة ورغدا.

فوجمت جولييت لحظة ثم عادت تقول بحزن:

– رباه.. أخشى أن تكون خواجي غير خواجك، وحديث نفسي منذراً لا مبشراً، إذ أحس الآن وأنت تحت الشرفة قبر دفين. وأشعر بأن وجهك اللحظة شاحب، ومحياك مصفر اللون، أم هما عيناي من الحزن لا تبصران.

– وفي عيني أنت تلوحين شاحبة. إن الحزن الكظيم يمتص الدم، والأسى المختنق في الصدر يلاشي من الوجوه حمرة الأرجوان، الوداع.. الوداع..!

– أيها القدر. أيها الدهر. إنهم ليدعونك متحولاً متقلباً وما أراك كذلك، فلو إنك كنت المتحول القلب كما وصفوك، فما وصفوك فما أنت صانع بالمؤمن، وماذا أنت فاعل بالمقيم على الوفاء؟ أيها الدهر كن متحولاً.. أيها الدهر كن متقلباً لأنك إن كنت كذلك أعدت إلى حبيبي ورددته قبل أن يطول على فراقه الأمد ويتراخى المدى.

وفي تلك اللحظة سمعت جولييت صوت أمها تناديها:

– جولييت. هل أنت مستيقظة؟ هل أنت صاحية؟

– من ذا ينادي؟ أهذا صوت والدتي؟ أذاهبة إلى الفراش متأخرة أم مفارقته باكرة؟ رباه أي سبب حملها على القدوم في هذه اللحظة.

ودخلت السيدة كابوليت في دهشة من رؤية ابنتها مستيقظة في هذه الساعة المبكرة. قالت:

– ما بالك يا جوليت، ومالي أراك هكذا قد بكرت في اليقظة.

– إنني مريضة يا أماه

– أمن طول بكائك على ابن عمك. عجباً يا بنيتي، أتحسبين أنك بالدمع

مخرجته من قبره، وبالبكاء الصيب الجائح جارفته من مثواه تحت أطباق الثري. وهبك استطعت ذلك بالعبرات، فهل أنت على أحيائه بعد ذلك قادرة؟ فهلا كفكفت يا بنية من عبرتك. ورققت من دمعك. إن بعض الحزن ينهك على بعض الحب، ولكن كثرة الأسى لتؤدي إلى قلة الإدراك والخلاء من الحكمة والصواب

- دعيني أبكي على هذه الخسارة التي أحسها
- نعم ولكنك لن تحسي العزيز الذي خسرته وإن أطلت البكاء عليه
- وهذا ما يزيدني عليه بكاء

فقالت أمها مواسية

- إنك إنما تكثرين من الأسى عليه. لأن قاتله النذل لا يزال على الأرض حياً.

قالت غاضبة:

- أي نذل يا أماه؟
- ذلك النذل الذي أعني هو روميو
- يغفر الله له. فإني له من كل قلبي غافرة. وإن كنت منه في حزن وويل. ولو لم يكن من الانتقام بد لكنت أنا بيدي هاتين الثائرة منه..
- اطمئني يا بنية فإنا لمنتقمون منه. وسوف أنفذ إليه من ماتوا حيث يقيم من يسقيه سماً زعافاً يقتله لساعته ويلحقه بالموتى الذين من قبله والهالكين، وأحسبك يومئذ ستشفين منه الغليل وتسرين.
- ما يسرني في هذا العالم شيء إلا أن أراه بنفسي، وما أغتبط من شيء قدر

اغتباطي بأن أكون أنا من أسقيه السم وجرعته فأنفذيني إليه يا أماه.. أواه..! إن قلبي يتألم ويضطرب كلما سمعت اسمه مذكوراً على الشفاه وأنا لا أستطيع سبيلاً إليه.

وكانت جولييت قد تراءت بهذا الغضب على روميو إذ كانت تخشى أن يحقق أهلها هذه الفكرة فأرادت أن تحول بينهم وبينها بهذه الوسيلة التي اصطنعها وذلك الجلد الذي تراءت به. وقد صدق أمها ما رأته من غضبها وكراهيتها لروميو فقالت:

- أوجدي أنت يا بنيتي الوسيلة وأنا أوجد المنفذ لها. ولكن دعينا من ذلك فإني قد جئتك بأخبار سارة وأنباء طيبة.
- ما أحوجنا اليوم في الواقع إلى ما يفرح ويطرد الهم عن نفوسنا.. فما هذه الأخبار يا أماه؟
- إن أباك الذي يرعاك ويفكر في خيرك يا بنية قد فكر في نفي الهم عن فؤادك وإدخال السرور على نفسك؛ فاختار لك يوم فرح وهيأ لك حادثاً مبهجاً ما كان ليخطر ببالك ولا كان يدور بخلدك.

قالت واجفة:

- وما هو ذاك يا أماه؟
- هو يوم الخميس القادم يا طفلتي فإن الكونت دي باريس الفتى الشهم والسيد الكريم والنبيل العريق المحتد سوف يمشي بك إلى الكنيسة في ذلك اليوم فيتخذ منك عروساً له يغمرها بالسعادة والرغد.

فما ان سمعت جولييت هذا الخبر حتى ارتجفت واضطربت، وراحت تقول:

- لن يكون ذلك يا أماه، وإني لأعجب لهذه العجلة في تزويجي برجل قبل أن

أختبر عاطفته وخلقه، وأستمع من شفتيه كلمة حب فهلا قلت يا أماه لوالدي أنني لا أريد الاقتران الآن.. إذ لم يحن الأوان بعد. ويوم أرغب في الزواج فلا والله ما أنا بمتزوجة غير روميو الذي لا أجهل مبلغ كراهيتكم له وحقدكم عليه. فإنه أهون والله من باريس وآثر عندي عليه. أهذه هي الأخبار المفرحة التي جئت إلى تحملين؟

فوجمت السيدة كابوليت وكظمت غيظها. وقالت:

- ها هو ذا أبوك قادم إليك فنبئيه أنت بنفسك لترين كيف يتلقاه من شفتيك.

وفي تلك اللحظة دخل الكونت كابوليت قال:

- حين تغيب الشمس يسقط الندى فما لي أرى على مغيب شمس تيبالت المطر ينهمر أبداً. يا عجباً لك يا بنية ألا تزالين في بكاء لا يعرف صبراً ولا يطيق تجلداً؟ كأنك ببدنك الصغير الدقيق قد استحال بحراً ورياحاً وقصفاً ورعداً؟! عيناك كالبحر تفيض دمعاً وبدنك كالزورق يغمره الماء مداً مرتفعاً وزفراتك وتنهداتك كالرياح زفيفاً وعصفاً متتابعاً.. زوجاه.. هل أبلغتها مشيئتنا؟

فقالت السيدة كابوليت:

- نعم يا سيدي ولكنها لا تريد أحدا. وتشكر لك ما عرضت ولكنها لا تقبله أبداً

قال في غضب:

- ماذا أسمع يا زوجة. أتقولين أنها لا تريد بأحد زواجاً. ألا تعد نفسها السعيدة الموفقة الفخور إن أخذنا لها سيداً كريماً وأخ نبل وسؤود؟ ألا

تشكرنا على أن هيأنا لها هناءة كهذه ورغداً؟

قالت جولييت:

– أما أنني فخور فلا. وأما أنني شكور فنعم وكيف أفخر بشيء أنا له كارهة. ولكني شاكرة لأن في عنايتك بأمري معزة وحب وحنان ما أنا له بمنكرة

فاستشاط الشيخ غضباً قال:

– ما هذا المنطق الرخيص الحقير الذي أسمع؟ أنا لست فخوراً ولكني شكور وأنا كيف أفخر. ثم كيف أتأتى أن أشكر..؟! ما هذا الهذيان كله وما مرده..؟ لست أحفل منك بفخار ولا بشكر ولكني آمرك أمراً أن تتهيئي ليوم الخميس القادم لكي تذهبي مع الكونت دي باريس إلى الكنيسة، وإلا سحبتك على وجهك إليها أيتها الفتاة المهزولة الصفراء.

وصاحت أمها بها تقول:

– العار العار يا بنية. هل تراك فقدت صوابك؟

فلبثت جولييت لحظة كالمأخوذة من شدة أحزانها وفرط حيرتها. ثم ألقت بنفسها عند قدمي أبيها باكية ناشجة تهيب به قائلة:

– أتوسل إليك يا أبت وأنا جاثية عند قدميك أن تنتظر حتى أقول كلمة

فصاح قائلاً:

– إليك عني أيتها الفتاة الغر الحمقاء العاصية العاقة. ليس عندي غير شيء واحد، وهو أن تذهبي إلى الكنيسة يوم الخميس القادم. وإلا فلا تريني وجهك بعد الآن وهذا فراق بيني وبينك، فلا تتكلمي ولا تردي علي ولا تجيبي فإن يدي تأكلني وأهم بأن أضرب وأؤدب. لقد كنا مخطئين يا زوجة

حين ظننا أن الله قد باركنا وأسعدنا بمولد هذه الفتاة الوحيدة لنا. فقد استحالت والله نقمة ولعنة من السماء.

وكانت المرضعة قد دخلت حين أخذ الشيخ يعنِّف ابنته ويزيد في آلامها ويرسل عليها صيباً من شتائمه، فلم تتدخل ولم تفه بكلمة، ولكنها لم تلبث إذ سمعت عبارته الأخيرة وشهدت حال جولييت أن خرجت عن صمتها. وأنشأت تقول:

– بارك الله فيها يا مولاي. مالها من ذنب وما عليها من لائمة. وإنما أنت يا مولاي الملوم على هذه القسوة في معاملتها والعنف في النصح لها

فغضب الشيخ من المرضعة واحتد عليها قائلاً:

– من الذي علمك الحكمة يا هذه وفصل الخطاب؟ أمسكي عليك لسانك الطويل أيتها المرأة واذهبي اسهمي في أحاديث العجائز من شبيهاتك ومثيلاتك. مالك ولهذا تدخلين فيه.

– والله ما نطقت إلا الحق وما قلت إلا الصدق.. فهل في قولي من أثم أو عيب؟

فنهرها بقوله:

– اسكتي أيتها الوقحة السليطة..

– أفلا يجوز لأحد أن يقول كلمة

فصاح مزمجراً:

– سكوت أيتها المخرفة. فما بنا من حاجة إلى كلامك. إنه أولى به أن يكون في حلقة من النسوة العيابات في حق غيرهن.

فخشيت السيدة كابوليت من غضبه زوجها، وأرادت أن تخفف من حدته فقالت:

– ما بالك محتد إلى هذه الدرجة ثائر النفس

– يا عجباً كل العجب.. عجباً يميت القلب.. أكنت مرتقبا أن تكون هذه هي نهاية حياتي ورفقي ورعايتي لهذه الجاحدة الناكرة. لقد كنت ليل نهار وصباح مساء لا أفكر في شيء غير إسعادها واختيار الزوج الخليق بها. لقد كان هذا هو شاغلي وموضع تفكيري في ساعات عملي وأوقات فراغي ولحظات نجواي وعزلتي. واليوم وقد كفلت لها زوجاً سيداً كريما نبيلا جميلا في ربيع الشباب، على خلق عظيم، وذا مزايا وفضائل ومكارم، جامعاً لكل ما يزين الرجال. إذا بي أجد حيالي فتاة غراً خرقاء بكاءة مدللة متأبية تقول لي لا أريد زواجاً، ولا أبغى قرانا بهذا الخطيب لأنني لا أحبه، وأنا لا أزال حدثة لم يحن بعد أوان زواجي. أمهلني يا أبت أو كن لذنبي غافراً، ونحو ذلك من المعاذير الكاذبة ولأسباب واهية. يميناً لو أبيت يا هذه زواجاً فإني تاركك ترعين مع الهمل، طاردك من بيتي لا تعاشرينني فيه ولا يحتويك بعد الآن. ففكري في هذا الأمر ملياً، وتبصري في العواقب، واعلمي أنني أجد فما اعتزمته، ولست فيما قلت عابثاً ولا لاهياً هازلاً. فهما هو ذا يوم الخميس يوشك أن يحل، فتحسسي قلبك، واختبري شعورك، واستنصحي من أنت مستنصحته، فإن كنت تأبين إلا رفضاً، فما أنت بعد اليوم ابنتي، فاذهبي هيمي على وجهك واسألي الناس في المدينة، واشحذي وموتي جوعاً ومسغبة. أي والله ما أنا بمردود عما أردت، فانظري ماذا أنت صانعة.

وانصرف غاضباً غير مترقب ولا متلفت؛ فنظرت جولييت إلي أمها بعين

مغرورقة بالدمع ونفس جريح حائرة مشدوهة وهي تقول:

- رباه.. أليس في السموات رحمة تطل من عليائها فتشرف على ما في أعماق نفسي من حزن. وما في قراراتها من ألم وويل واغتمام، وأنت يا أماه الحنون الرءوم لا تتخلي عني ولا تنبذيني. أماه ألا سبيل لتأجيل هذا الزواج شهراً، بل أسبوعاً آخر. وإلا إذا أصررتم عليه فمهدوا لفراش عرسي مكاناً بجانب تيبالت فإن الموت والله منه أهون.

ولكن أمها كانت قاسية هي كذلك، بل مشاركة أبيها في فكرته معللة الآمال الكبار على هذا الزواج الذي أراداه لابنتهما من الكونت دي باريس لغناه وعريض ثرائه وسلطانه العظيم فأجابت ابنتها بقولها:

- لقد خرج الأمر من يدي فلا تكلميني فيه، وافعلي ما بدا لك فإننا قد قضينا فيه قضاءنا ولن نرجع عنه.

وانصرفت هي كذلك تاركة ابنتها ليأسها القاتل، وحزنها الفاجع، وحيرتها الأليمة. فلما خلا المكان لجولييت ومرضعتها، انثنت إليها ودموع اليأس تملأ عينيها وتتحير على خديها فقالت:

- رباه.. مرضعتاه.. كيف السبيل إلى دفع هذا الخطب وتجنب هذا المصاب الداهم؟ فإن زوجي في الأرض وإيماني في السماء فكيف يعود هذا الإيمان مرة أخرى إلى الأرض ما لم يرسله زوجي من السماء بتركه الأرض ومفارقته الدنيا. أيتها المرضعة الوفية النصوح، أما من مواساة، ألا من نصيحة تسدينها. فوا أسفي على أن السماء ومقاديرها تعبث بفتاة مسكينة ضعيفة مثلي وتكيد لها كيداً.. فماذا عندك من رأي؟ وماذا لديك من مشورة مواسية؟

– إن كان لا بد من نصيحة فهي يا بنية، أن روميو اليوم في المنفى وما أحسبه يوما بعائد إلى المدينة ليتحدى العالم من أجلك ويستردك إليه، وإذا هو احتال لذلك فما أعلم من سبيل أمامه غير التخفي والخلسة، وليس في ذلك من جدوى ولا طائل تحته. وما دام الأمر كذلك، فالرأي عندي أن ترتضي الزواج بالكونت فإنه والله فتى محبب جميل وسيد نبيل كريم، وإن روميو بالنسبة إليه لا شيء يذكر، وما هو منه في الجمال والجلال ولا قلامة ظفر. إن باريس يا سيدتي ليفوق النسر حدقة وناظراً وعيناً نفاذة تأسر القلوب وأكبر ظني أنك سوف تسعدين بخطيبك الثاني لأنه أسمى بكثير من خطيبك الأول وأرفع منه قدراً وذكراً، أو قولي إن الأول قد مات أو هو في عداد الموتى، ما دام نائياً عنك، وأنت عنه نائية.

فتنهدت جولييت من أعماقها والهة متحسرة، وانثنت تقول لمرضعتها:

– أهذا الذي تقولينه ينبعث من قلبك حقا؟

– بل من روحي والله وأعماق نفسي، وإلا فاللعنة عليهما معاً إن كنت من الكاذبين.

– آمين

وأطرقت جولييت ملياً تفكر في أمرها، وتحتال للخلاص من هذا المأزق الذي أحاط بها، وأخيراً بدا لها أن تستنصح الراهب لورنس وتستعين به، فإذا لم يعن، ولم يجد مخلصاً. قتلت نفسها واستراحت من أحزانها. وما كاد هذا الخاطر يلتمع أمام خيالها حتى تهلل وجهها وأضاء بنور التعزية؛ فرفعت رأسها وقالت للخادمة:

– لقد أحسنت نصحاً، وأسديت رأياً صائباً فاذهبي إلي والدتي فنبئيها بأنني

قد ندمت على إغضاب والدي والاستهداف لنقمته وعصيان أمره، وأنا ذاهبة الساعة إلى صومعة الراهب لورنس لأعترف له وأسأل المغفرة عما فرط مني في حق أبي وطاعته.

ففرحت المرضعة بهذا الرأي الذي أجمعت جولييت عليه وقالت:

– أحسنت يا مولاتي الإحسان كله. فذلك هو الحكمة بعينها. وها أنا ذاهبة لأرفع الخبر إلى مولاتي.

وتركتها مسرعة لكي تنبئ السيدة كابوليت. فلما خلت جولييت إلى نفسها أنشأت تقول:

– اللعنة عليك أيتها المرأة الخبيثة الرأي، الموحشة الخاطر. لست أدرى والله أي ذنب أكبر وأي أثم أعظم وأخطر. أنصحها لي بأن أسلم نفسي هكذا لمن لا أحب، وأذعن للزواج بمن لا أريد، أم ذمها في روميو بذلك اللسان ذاته الذي طالما امتدحه وأثنى بالخير عليه؟ ألا بعداً لك أيتها الناصحة الخائنة الكذوب المرائية.. لن أستنحصك بعد اليوم ولن أسألك رأياً، ولأذهب من ساعتي إلى الأب لورنس فإن لم أجد خلاصاً عنده فليس عندي سوى الموت مخلصاً، ولا خير في دنيا قبيحة ملأى بالأكاذيب.

القسم الرابع

١

ولما علمت السيدة كابوليت من المرضعة بما اعتزمته جولييت، فرحت به وبعثت في الحال إلى الكونت باريس تطلب إليه أن يقابل ابنتها في كوخ الأب لورنس، ويعمل على استمالة الراهب إلى مساعدته حتى يقنعها بقبول الزواج به. فلم يتردد الكونت دي باريس في الذهاب إلى الراهب لتنفيذ هذه الفكرة الجديدة. ولما دخل عليه الصومعة حياة وأنشأ يقص عليه ما جرى ويسأل المعونة والرأي الحسن.

فلم يكد الشيخ يعلم بالأمر حتى اضطرب وجزع، لأنه عقد القران لجولييت وروميو من قبل، ولم يكن يتوقع أن تتطور الحوادث على النحو الذي تطورت إليه، ولكنه تجلد وتمالك ليعالج الأمر بحكمة. قال مبهوتا:

– أقلت يوم الخميس القادم يا سيدي؟.. إن الموعد قريب ولم تبق عليه إلا فترة قصيرة لا تتسع لما تريد مني أن أعالجه.

– هكذا أراد الشيخ كابوليت، ولا أنكر عليك أنني ليس من مصلحتي أن أرده عن عجلته هذه أو أثنيه عن تسرعه.

– لقد علمت من قصتك يا سيدي أنك لا تعرف شعور الفتاة نحوك، فإذا صح هذا كانت الخطة التي اتبعتموها غير صائبة، وأنا أعترض عليها ولا أقرها.

– لقد رآها أهلها تفرط في البكاء وتكثر من النحيب على مصرع تيبالت،

وشاهدت أنا ذلك منها فلم أشأ أن أتحدث إليها أحاديث الحب أو أسبر غور عاطفتها، لأن الحديث عن الحب لا يكون في أفق تغمره الدموع وجو كثيف السحب والغمائم، وقد رأى أبوها أن ينفي الحزن عنها ويطرد أشباح الهموم عن ساحتها، فاعتزم أن يعجل بزواجنا لكي يقطع فيض دمعها ويكفكف من عبراتها، عالماً أن لا شيء يجدي في التسرية عنها حتى لا تخلو إلى نفسها، ولا تسكن إلى وحدتها، وأحسبك الآن قد عرفت سر هذه العجلة التي لم ترقك.

- نعم لقد عرفت.

وحانت منه التفاته فرأى جولييت قادمة نحوهما فقال:

- ها هي يا سيدي قد جاءت لزيارتي.

وما لبثت جولييت أن أقبلت نحوهما تمشي على حزن وتخطو على استحياء فبادرها الكونت محييا وهو يقول:

- السلام لك يا مالكتي وزوجي العزيزة.

قالت في جفوة:

- لم أصبح كذلك بعد يا سيدي فلا تستبق ولا يعجل به لسانك

- ولكنه سيكون وشيكاً، وموعدنا الخميس القادم يا حبيبتي

- ما قدر سيكون.

فأجاب الراهب بقوله:

- هذا صحيح، والدين يقول ذلك..

فسألها الكونت قائلا:

- هل أتيت إلى أبينا هذا لتعترفي له؟

فأجابته ببرود:

- لو أجبت عن سؤالك هذا لكان الاعتراف لك أنت لا له.

- لا تنكري عنه أنك تحبينني.

أجابت باللهجة ذاتها:

- بل سأعترف لك بأنني أحبه.

- إنني واثق أنك ستعترفين له بأنك تحبينني

فأجابته بسخرية وجفاء:

- إن فعلت ذلك كان لاعترافي بالحب من وراء ظهرك شأن غير شأن الاعتراف به أمامك وفي وجهك

- لهف نفسي أن وجهك قد قرحته الدموع.

- لقد انتصرت إذن الدموع لأنه كان قبيحاً قبل مسيلها فزادته هي قبحا على قبحه.

- إنك لتظلمينه بهذا الرأي فيه أكثر مما ظلمته الدموع

فأجابته وقد ضاقت ذرعا بإلحاحه ولجاجته:

- ليس في هذا غيبة لأنه الحق وقد قلته في وجهي فهو إذن مصارحة وما هو بسعاية ولا اغتياب.

- ولكن وجهك هو لي فأنت إذن قد اغتبته

فلم تطق صبراً على هذه المحاورة الثقيلة على نفسها؛ فقالت مخاطبة

الراهب معرضة عنه:

– هل يسمح لك وقتك يا أبت الآن؟ أم أعود إليك بعد صلاة العشاء؟.

– بل في الوقت متسع يا ابنتي الحزينة.

والتفت إلى الكونت فقال:

– هل يأذن مولاي في تركنا لنؤدي هذه الفرصة الدينية؟

– معاذ الله أن أحول بينك وبين فريضة من فرائض العبادة والدين.

ونظر إلى جولييت فقال:

– سأوافيك مبكراً في صباح الخميس القادم لإيقاظك من نومك. أما الآن وإلى أن يحين هذا الموعد الذي أتلهف عليه فاستودعك الله.

وتقدم إليها فقبلها في جبينها وهو يقول:

– والآن احفظي هذه القبلة المقدسة.

وانصرف عائداً من حيث أتى. فما كاد يتوارى عن عيني جولييت حتى أنشأت تقول للراهب:

– أوصد في أثره الباب، وتعال ابك معي ودمع الدمع ينهمر.. فقد ذهب الأمل، وعز العلاج، وتناهى الشفاء.. وأعوزني النصير، وفقدت المعين.

٢

وغمرت العبرات مآقيها وتحير الدمع على خديها، وساد السكون.. قال:

– لقد عرفت يا جولييت كل شيء من أمر أحزانك وهمومك. وقد تجاوز علمي بها مدى رأيي ومحيط حكمتي ودائرة مشاعري وتفكيري. فقد بلغني

أنك قد تحتم عليك أن ترتضى الزواج بهذا الكونت وعقد قرانه عليك في يوم الخميس القادم، وأنك لا تدرين كيف السبيل إلى التخلص من هذا الفضاء المبرم الأليم.

قالت وهي متقطعة الأنفاس مستسلمة للعبرات:

- لا تقل يا أبت قد علمت، ولكن قل هل فكرت في إنقاذي وتدبرت؟.. أبت الناسك الصديق الكريم.. ألا من سبيل.. ألا من حيلة.. وإذا أنت عجزت بحكمتك عن معونتي. ويئست من إيجاد وسيلة لإنقاذي ونجاتي.. فدعني إلى اعتزامي ولا تقل أنها طائشة ولا تحكم بأنها بعيدة عن العقل والصواب. فإني بهذا الخنجر منفذتها في الحال. لقد قرن الله قلبي بقلب روميو وقرنت أنت يدي بيده.. ولكن قبل أن تمتد يدي هذه التي جمعت بينها وبين يد روميو لتقترن بيد رجل سواه، ويتجه قلبي الوفي إلى إنسان غيره، منصرفاً عن وفائه الذي أقسمت أن يكون قائماً آخر الحياة.. ستقتل هذه اليد قلبي وقلب روميو معي، وإلا فأعني يا أبت بفضل خبرتك الطويلة، وعلمك الواسع، امنحني النصيحة، وابذل لي الرأي الأخير، وإلا فدع هذا الخنجر المرهف النصل يقم حكماً بين شقوتي وبيني، ليقض بما عجزت حكمتك وتجربتك واحتيالك وتدبيرك عن إيجاد الوسيلة الشريفة إليه. أبت الكريم لا تطل صمتاً، ولا تلتزم سكوتاً، فإني لفي أشد اللهفة على الموت إذا أنت لم تجد لي مهرباً.

ولكن الأب لورنس ظل لحظة طويلة صامتاً يفكر في هذه المشكلة الطارئة، وظلت هي تنظر إليه قلقة متلهفة، لعلها ترى في وجهه بريق أمل حتى كادت تسأم منه ذلك الصمت المستطيل من فرط القلق وتناهي اللهفة، وإذا بلمعة خطفت وجهه وتراقصت في عينيه ولم يلبث أن قال:

– استمعي لي يا ابنتي.. إنني ألمح خيطاً من أمل، ولكنه يقتضي استيئاساً في التنفيذ يعدل في خطره ورهبته ما نريد أن نحول دونه، ونمنع وقوعه وما دمت تؤثرين قتل نفسك ولديك من قوة الإرادة ما يحملك على الإبداء بحياتك، على الاقتران بالكونت دي باريس.. فهل في إمكانك يا بنية أن تقومي بأمر هو أدنى إلى الموت؟ وهل في وسعك أن تنفذيه لتتخلصي من هذا الجرح الشديد الذي أحاط بك؟.. هو شيء يشبه الموت، وأنت قد دفع الأسى بك إلى مواجهته، فإن كان في نفسك عزم، وفي قلبك إقدام، فإن الدواء عندي لهذا الذي اقترحته.

– أواه يا أبت.. مرني أن أقفز من هذا البرج الشاهق الذي يلوح لكل من موضعنا هذا. أو أن أسلك المفاوز التي يغشاها اللصوص وقطاع الطرق وشر المجرمين بل مرني أن أحتبس بين الأفاعي والثعابين. أو قيدني بالأغلال مع الذئاب العلوية والدببة المزمجرة الضارية أو احتجزني طيلة الليل في مقبرة وسط عظام الموتى ومدافن الهلكى والغابرين، وجماجم الذاهبين الأولين. أو ادفني حية في قبر جديد مع ميت في الأكفان مدرج دفين. أو اختر لي ما ترعش منه الأبدان لسماعه، وترجف الأوصال لقصته. فإن ذلك كله والله أهون من الزواج بباريس، وإني لراضيته في غير تردد ولا مخافة، إذ حسبي أن أظل وفية لزوجي الذي أخلصت له بالحب مدى الحياة.

– أصغي إذن لما أنا قائله يا بنية.. عودي إلى بيتكم، مخفية أحزانك متظاهرة بالمرح، مترائية بالتهلل والانشراح، فنبئي أبويك إنك قد رضيت باريس لك زوجاً، فإذا حل الغد وهو الأربعاء، فالتمسي في مسائه خلوة إلى نفسك، ولا تدعي مرضعتك ترقد تلك الليلة في مخدعك. وخذي هذه

القارورة الصغيرة فإذا ما احتواك مضجعك فاجترعي ما فيها من سائل مقطر، فلا يكاد يسري في أعصابك حتى تشعري ببرودة أطرافك وتحسي رعدة سرت في جميع أجزاء بدنك، ويستحيل لونك إلى شحوب وامتقاع، فتصفر منك الشفتان ويزول من محياك هذا الأرجوان، وتغمض منك العينان، ويعتريك شيء كالموت في جميع مظاهره وأعراضه وسماته، فتلوحي للقوم ميتة خامدة الأنفاس، متخشبة البدن منطفئة الإحساس. وسوف تمكثين على تلك الحال الشبيهة بالموت، وما هي في الواقع به اثنتين وأربعين ساعة، وعند ذلك تستيقظين كأنك كنت في حلم لذيذ عذب جميل. وحين يجئ خطيبك في صباح اليوم التالي ليوقظك حتى تذهبا إلى الكنيسة، يجدك على تلك الصورة الرهيبة ميتة ساكنة، وبدناً جامداً لا حراك به، فيعتقدون إنك قد فارقت الحياة، ويذهبون كعادتنا في بلادنا يلفونك في أحسن ثيابك، ويحملونك بأبهى حللك ويضعونك مسجاة فوق نعش حاسرة الوجه، ثم يحملونك إلى مقبرة أجدادك وآبائك الأولين. وخلال فترة غشيتك ودفنتك، أوفد إلى روميو رسولاً بكتابي أنهي إليه حقيقة أمرك فيأتي مبادراً ليوافيني فنذهب معاً إلى المقبرة نرتقب يقظتك وعودتك إلى الحياة، فيحتملك في الليلة ذاتها معه إلى مانتوا، وبذلك تتخلصين من هذا المأزق الحرج. فما عليك يا ابنتي إلا أن تستجمعي شجاعتك، فإنك إذا لم تستلمي لجبانة النساء ومخاوفهن ولم تستول عليك رهبة الفكرة. بل تشجعت وأحسنت التمثيل كان لك ما ترتدين. وعادت إليك السعادة التي تلتمسين.. وفزت بزوجك الشرعي التي تحبين. وخرجت من هذا الموطن الأليم ناجية.

فتهللت أسارير جولييت وفرحت أشد الفرح، وراحت تقول للراهب وهي

مستبشرة مغتبطة:

- هات الزجاجة ولا تحدثني يا أبت عن الخوف، ولا تذكر الوجل فإني قوية مقدمة على ما وصفت.

فدفع الراهب إليها بقارورة صغيرة تحوي الشراب الذي وصفه لها، وهو يقول:

- ها هو ذا يا ابنتي، فاذهبي إلى البيت الآن، وتهللي وترائي فرحة مرحة، واعتصمي بالشجاعة والجلد، عسى الله أن يفتح عليك ويهديك إلى أقرب من هذا رشداً. وأما أنا فسوف أوفد إلى مانتوا رسولاً بكتاب مفصل إلى زوجك العزيز والله المستعان على ما نريد.

فتناولت جولييت القارورة منه، وهي تقول:

- أيها الحب ألهمني القوة والبأس، وأعني على هذا الأمر بقوتك وسلطانك، والآن أستودعك الله يا أبت العزيز.

وكان الشيخ كابوليت قد بدأ يعد العدة ليوم القران، فكتب رقاع الدعوة لمن رأى أن يدعوهم من الأهل لحضور حفلة الزفاف، واستدعى أحد خدمه فقال له:

- اذهب استأجر لي عشرين رجلاً من خيار الطهاة.

وانثني يسأل المرضعة:

- هل ذهبت جولييت حقاً لزيارة الأب لورنس؟

فلما علم بأنها قد ذهبت إليه قال:

- لعله عادل بها عن إصرارها الأثيم.

والتفتت المرضعة فرأت جولييت قادمة، وهي متهللة الأسارير سريعة الخطى يلوح الفرح على محياها، فقالت لأبيها:

- ها هي ذي قادمة من الكنيسة مغتبطة راضية.

فلم تكد جولييت تقترب من أبيها حتى بادرها بقوله:

- أين كنت أيتها الطفلة العنيدة فيما لا خير من العناد فيه. أين كنت يا صلبة الرأي ويا ذات الرأس "الناشف"؟

- كنت حيث تعلمت الندامة والتكفير عما أثمت فيه من العصيان لأمرك، والاعتراض على مشيئتك، وقد نصح لي الراهب الورع الكريم أن أجثو عند قدميك وأسأل الصفح عما فرط مني وأرجو منك المغفرة، وهاأنذا قد جئت إليك ألتمسها ولن أعصي لك يا أبت بعد اليوم أمراً، وستجدني إن شاء الله من الصابرين.

فابتسم الشيخ، وسُر السرور كله مما سمع من فتاته، وقال:

- سنرسل إلى الكونت في الحال لنبلغه فإني أريد أن ينتهي هذا الأمر كله غداً.

قالت جولييت:

- وقد لقيت الكونت الشاب عند الراهب لورنس، فلم أعترض عليه في تقبيلي لتكون في تلك القبلة البريئة دليل حي له ورضائي به، وإن لم أتجاوز في منحها له حدود الحياء.

قال وهو مغتبط فرح:

- لقد أحسنت يا بنية، وإني لفرح بما قد سمعت فآتوني بالكونت ولا تبطئوا.

اذهبوا فأبلغوه في الحال ليحضر على عجل إلينا. يمين الله أن هذا الراهب المحترم لطيب كريم، وقد أصابت المدينة كلها في حبه والنزوع إليه، لأنها مدينة له بفضل عظيم.

فانثنت جولييت إلى مرضعتها؛ فقالت:

– هيا بنا ندخل مخدعي لكي تساعديني على إعداد مجوهراتي وحليّ وما ينبغي أن أتجمل به غداً.

ولكن أمها وكانت حاضرة حديثها اعترضت عليها قائلة:

– كلا يا ابنتي. دعي ذلك إلى يوم الخميس فإن في الوقت متسعا

إلا أن أباها لم يرقه اعتراض زوجته فقال للمرضعة:

– اذهبي معها فإنا غداً ذاهبون حتما إلى الكنيسة.

وما كادت جولييت تنصرف إلى مخدعها مع مربيتها، حتى انثنت السيدة كابوليت تقول لزوجها:

– أرى أن الفترة قصيرة للغاية، فنحن الآن مساء وسوف لا نجد فسحة لإعداد معدات الاحتفال.

فصاح بها قائلا:

– كلا. كلا. فإني سأعمل جهدي غي إعداد كل شيء وسأنشط لتدبير مطالب الحفلة. فاذهبي أنت إلى جولييت لتعينها على زينتها أما أنا فلن أبيت الليلة ولن أنام، بل لأسهرن الليل كله في توفية مطالب العرس ولوازمه.. أيها الخدم هيا.. ولكني قد أنفذتهم جميعاً لقضاء ما طلبته، فلأذهبن بنفسي إلى الكونت دي باريس لأبلغه أن يستعد للغد فإن قلبي

في فرح بالغ، ومراح زائد، بعد أن ثابت تلك الطفلة المتحولة المتقلبة إلى الحكمة والرشاد.

فلم تشأ السيدة كابوليت الإلحاح عليه، وقد رأت من إصراره واعتزامه ما رأت..

-٤-

وفيما كانت جولييت مع المرضعة في مخدعها تعد حليها وتخرج أجمل ثيابها، ونفائس دررها ومجوهراتها إذ أنشأت تحدث المرضعة قائلة:

- أحسب هذه الثياب أصلح من سواها لحفلة الغد، ولكني أرجو إليك أيتها المرضعة الكريمة أن تدعيني الليلة في غرفتي وحدي، فإني بحاجة إلى الصلاة طويلا والدعاء إلى الله أن يغفر لي ذنبي ويسدل ستر غفوة على ما أتيت من معصية.

ولكن المرضعة لم تستطع جوابا إذ دخلت السيدة كابوليت عليهما في تلك اللحظة فقالت:

- يا عجبا! ألا تزالين منهمكة في إعداد زينتك ومطالب حفلتك يا بنية.. ألا تريدين أن أعينك عليه؟

فأجابتها جولييت قائلة:

- لقد أعددنا كل شيء للغد يا أماه فلا حاجة بنا إلى المعونة فأرجوكما أن تتركاني وحدي. وخذي المرضعة يا أماه معك الليلة لتعاونك مع بقية الوصيفات في البيت فإني أعلم إنك سوف تشتغلين كثيرا في إعداد معدات هذه الحفلة العاجلة.

– طابت ليلتك إذن يا ابنتي فنامي بسلام لتستريحي فإنك إلى الراحة محتاجة.

– استودعك الله يا أماه.

وتركتها أمها منصرفة وتبعتها المرضعة، فلما خلت جولييت إلى نفسها أنشأت تقول في نجواها:

– الوداع.. الوداع! فإن الله وحده يعلم متى يكون لقاء، أو قد لا يكون لقاء واجتماع. إني أشعر الساعة برعدة خوف شديد تسري في عروقي حتى لتبرد في بدني حرارة الحياة، وأود لو أناديهما ليعودا ويواسياني ويذهبا عني هذا الخوف الذي تولاني. يا مرضعتي.. ولكن ماذا عند مثلها لي، وماذا تراها صانعة من أجلي.. إن الدور الرهيب الذي يتحتم علي القيام به يجب أن أمثله وحدي، فتعالي أيتها القارورة! تعالى أيتها المنقذة المنجية، هيا انجديني مما يبيت لي، وانقذيني من الغد وما هو به مطلعي..

ولكنها حين همت بأن تجرع ما في القارورة، استولى عليها خاطر جديد زادها هلعا، فأمسكت عن شربه لحظة وراحت تقول لنفسها:

– ولكن ماذا يكون من أمري إذا شربت هذا السائل المقطر فلم يحدث الأثر المطلوب ولم يؤد المفعول العجيب الذي قيل لي إنه مؤديه.. ويلتا.. ألا يكون غداً قراني بالكونت دي باريس إذا لم يسعف هذا الشراب على ما هو به مسعف. ولكن كلا.. لن يكون هذا القران أبدا. فإذا لم يغن هذا الشراب فإن هذا الخنجر بلا ريب لن يكون خاذلي. أيها الخنجر المعوان ابق هنا بجانبي

ووضعت الخنجر جانبا، واسترسلت في أوهامها وصور خاطرها مناجية النفس قائلة:

– ولكن.. من يدري فقد يكون هذا الشراب سما قاتلا جهزه الراهب بدهاء ومكر لكي أموت به مخافة أن يكتشف الناس ذنبه لأنه هو الذي زوجني بروميو قبل هذا القران الذي يراد بي.. أخاف ذلك وأخشاه. ولكني أحسبه ليس كذلك لأن الراهب رجل كريم يخشى الله، وقد عرف الناس فيه القداسة والورع وفعل الخير، فلا يقدم على جريمة نكراء كهذه وإثم عظيم. ولكن.. ماذا يكون الحال إذا أنا انتهيت من العشية بعد ذهابهم بي إلى المقبرة وقبل قدوم روميو ليأخذني. ألا أختنق في ذلك القبو الرهيب الذي لا ينفذ إليه الهواء النقي، ولا تهب عليه من الفضاء ريح طاهرة تبعث الحياة، وتبقى على البدن، وتمسك الرمق. ألا أموت خنقا قبل أن يهرع روميو لإنقاذي من ذلك المرقد المخيف. وإذا لم أختنق وظلت الحياة في بدني مترددة، فكيف أطيق البقاء لحظة في ذلك الموضع المرهوب، الذي يجتمع عنده التفكير في الموت والظلام الدامس في فحمة الليل ووحشته. ذلك المكان الذي تزدحم فيه من قديم الزمان ومئات السنين، عظام آبائي الأولين. وحيث يرقد تيبالت داميا، مضرجا ملففا في أكفانه، لا يزال طريا أخضر في الأرض، حديث عهد برقدة الثرى، وضجعة المثوى. وحيث تطوف كما يقال أشباح الموتى، وأرواح الضاجعين. ويلتا. ويلتا.. ماذا يكون حالي إذا أنا استيقظت قبل الموعد المعين فهبت على أنفي تلك الروائح المستكرهة، وطرق سمعي تلك الصيحات المنبعثة من جوف الأرض زاعقة صاخبة، لو سمعها حي من بني البشر لذهب لبه، واستولى الجنون عليه. رباه. ألا أفقد عقلي حين أستيقظ على هذا المشهد المخيف. وفي وسط تلك المناظر التي تقشعر منها الأبدان. ألا أروح في جنتي أعبث بعظام آبائي، ورفات أجدادي، وأمزق أكفان تيبالت المضرج بدمائه بل من يدري فقد أتناول من فزعي وهول ما أرى ساق ميت من أهل الغابرين

فأهشم بها رأسي كأنها الهراوة الغليظة والعصا القاضية؟. ألا يحتمل أن أشهد روح ابن عمي مطاردة روميو الذي سفك دمه على نصل سيفه. قف تيبالت. لا تتقدم. وأنت روميو ها أنا قادمة إليك، ومن أجلك ها أنا أشرب.

واستجمعت في تلك اللحظة قواها الخائرة فتناولت القارورة فشربت ما فيها وهي في سكون وثبات عجيب. وما كادت تفعل حتى سرت برودة في أعضائها، وانتفض بدنها انتفاضة شديدة، ثم ما لبث بدنها أن تراخى واستولى عليه خمود، فتحاملت حتى مشت إلى سريرها، فتهالكت عليه مستلقية، وقد أرخت السدول عليه. وما هي إلا هنيهة واحدة حتى غابت عن الوجود.

-٥-

وكان الشيخ كابوليت في تلك الليلة يروح ويغدو في القصر مستنهضا الخدم والغلمان. شاحذا الهمم لإنجاز معدات الحفلة القادمة مع الغد المرتقب. كما كانت السيدة زوجته في شغل شاغل بمعدات الوليمة تنادي الخدم والوصيفات إليها ليجئن بما يطلب الطهاة من لوازم لطعام العرس ومأدبته. وما لبث أن دخل عليها الشيخ فقال:

- البيت كله في حركة والخدم جميعا في نشاط، والمعدات على قدم وساق. وها هو ذا الديك قد صاح للمرة الثانية، وناقوس الكنيسة يدق، وقد آذنت الثالثة من الصباح، فهيا اذهبي يا أنجليكا تفقدي المطبخ، وقفي على اللحوم حتى تنضج، ولا يهمك النفقة ولا تراعي للتكاليف.

ولكن المرضعة أنجليكا كما سماها الشيخ باسمها لم تذهب وإنما جعلت تقول له:

– أخشى عليك يا مولاي طول السهر وشدة الإعياء، فخير لك أن تلتمس فراشك، وإلا أصبحت مريضا متعبا غداة غد من طول سهرك.

– كلا.. فلقد طالما سهرت قبل هذا الليالي طولها لسبب أقل من سببنا اليوم شأنا. فما بالي لا أسهر الليلة ونحن في أمر يوجب اليقظة والاهتمام.

فقالت زوجته محاولة إقناعه بوجوب الإخلاد إلى سريره.

– لقد كنت في شبابك مطيل السهر قوام الليل في اللهو والمراح، فلا عجب أن تسهر الليلة وتؤرق وتطيل المكوث لمعدات الفرح والوليمة الحافلة، ولكني سأظل أنا عليك ساهرة، ولن أنثني عن مراقبتك مادمت تأبى أن لا يغمض لك جفن.

وتركته وانصرفت مع المرضعة لتتفقد المطبخ وتنظر ماذا يطلب الطهاة.

قال وهو يبتسم لنفسه:

– يا لغيرة المرأة! تغار حتى على الشيخ وهو مدبر ترامت به الأعوام.

ومر به في تلك اللحظة بعض الخدم يحملون أخشابا وحطبا وسلالا تحوي صنوفا من الخضر والأغذية. فنادى أحدهم قائلا:

– ماذا وراءك يا غلام؟ وكيف يسير العمل؟

– نحمل لوازم للمطبخ يا مولاي، ولكني لا أعلم شيئا عن سير العمل.

– أسرعوا.. أسرعوا

والتفت إلى حامل الخشب فقال:

– اجلب خشبا أحسن من هذا الذي تحمله. واسأل رئيسكم بطرس يدلك على الموضع الذي فيه نجده.

- إن لي رأسا يا مولاي يعرف جيد الخشب فلا أحتاج إلى مشورة أحد فيه.

فسر الشيخ لجواب الغلام وقال:

- أحسنت يا هذا قولا، وإن كنت عنيداً كأنك أخرق أو كأن لك رأسا من خشب.. يا لله! لقد لاح الصباح، وحانت الأفراح، ولن يلبث الكونت أن يحضر ومعه العازفون والموسيقيون. كما وعد. وإنه لمنجز موعده. ماذا أسمع؟! ها هي ذي أنغام الموسيقى تترامى من مكان قريب.

وكان الكونت دي باريس قد خرج من داره مع مطلع النهار في موكب من قومه وصحابه. حتى دنا من البيت وأشرف على الطريق المؤدية إليه فراحت الموسيقى تصدح إيذانا بمقدمه. ونادى الشيخ بأعلى صوته:

- يا مرضع.. يا زوجة.. يا وصيفات أقبلن.. هيا أسرعن..

فجاءت المرضعة تستبق. قال:

- أسرعي إلى جولييت فأيقظيها وجمليها، وتلطفي في زينتها، وأبدعي ما شاء الله لك الإبداع، ريثما أذهب للقاء باريس وأتحدث مليا إليه. هيا أسرعوا جميعا فقد حضر العريس.

وانطلق لمقابلة الكونت، بينما ذهبت المرضعة إلى مخدع جولييت لتنفيذ أمره.

-٦-

ولما دخلت المرضعة على جولييت المخدع وجدتها لا تزال في سريرها نائمة وقد أرخت الأستار عليه، فاقتربت من الفراش وهي تقول:

- مولاتي.. مولاتي جولييت.. ألا تزالين نائمة.. يا لك من مكسال نوامة

أيتها الحمل الوديع.. مولاتي ما كل هذا النوم الطويل؟.. يا عجبا.. ألا تقولين كلمة واحدة.. لقد نمت ما يغنيك عن أسبوع كامل وأكبر ظني أن الكونت دي باريس في الليلة القادمة لن يدعك تنامين إلا قليلا..يا الله! ما بالها في سبات عميق.. لا بد لي إذن من إيقاظها.. مولاتي.. مولاتي.. أتريدين أن يفاجئك الكونت في فراشك فتكون مباغته مخيفة؟.

وتقدمت من السرير فرفعت الأستار، وألقت نظرها على مولاتها النائمة، فرأتها مستلقية على فراشها بثيابها لم تخلعها، وأرديتها لم تستبدل بها ثياب النوم. فبهتت العجوز وجعلت تقول:

- يا الله! ألم تخلعي عنك ثيابك.. ولا تزالين نائمة..

وأكبت عليها منادية:

- مولاتي جولييت.. مولاتي جولييت

فلم تسمع جوابا، فلمستها بيدها فلم تجد غير بدن بارد لا أثر للحياة فيه، ووجه شاحب في مثل شحوب لون الموتى، فاستولى الرعب عيها، وملأت خوفا وهلعا، فجعلت تنادي مستغيثة مستنجدة. فجاءت السيدة كابوليت تهرع على صيحاتها تقول من فرط الدهشة:

- ماذا جرى؟

- يا له من يوم محزن!

وأومأت نحو سرير جولييت وهي تردد قولها:

- يا له من يوم أسود حالك السواد! يا ليت الشمس ما طلعت عليه.

فأسرعت السيدة كابوليت إلى سرير ابنتها، فأطلت عليها ولمست

جسدها، ثم تولاها خوف شديد، ورعب رهيب، فصاحت مولولة:

- يا لشقائي... ابنتي.. وحيدة حياتي.. أي طفلتي الغالية استيقظي وتطلعي إلى أمك الحزينة وإلا مت معك وفارقت الحياة.. الغوث أيها الناس.. النجدة.

وجاء على الصياح زوجها مأخوذا، ولم يدر ماذا حدث، فقال:

- العار عليكن يا نساء.. لماذا تأخرتن هكذا في إيقاظها وتجميلها.. وعريسها قد حضر.

فصاحت به المرضعة قائلة:

- حسبك يا مولاي. فقد ماتت.. وفارقت الحياة.. أواه.. ما أسوأ هذا اليوم وأشأم مطالعه.

فكاد الشيخ يخر صعقا، ولبث مذهولا شارد اللب جامداً في مكانه لا يعي حراكا ولا ينطق بقول. ثم أفاق قليلا من غشية فدنا من سرير ابنته، ومد يده فلمس بدنها، وهو يقول:

- يا الله.. لقد بردت أطرافها، وجمدت أوصالها، وسكن الدم في عروقها عن جريانه، وقد فارقت الحياة شفتيها من فترة طويلة، وحط الموت عليها كما ينزل الندى قبل أوان منزله على أجمل زهرة في البستان.

فولولت المرضعة قائلة:

- يا له من يوم مشئوم! يا للمصيبة.. ويا للداهية!

وتبعتها السيدة كابوليت في ولولتها وندبها، وهي في أشد حال من الحزن والغم، على حين وقف الشيخ ذاهلا مروعا يقول:

– لقد عقد موتها لساني، ونزل مصابي فيها على قلبي فلست أجد كلاما. لقد حطمني موتها تحطيما، فلست مطيقا العيش من بعدها طويلا.

وفيما هم على هذه الحال إذ قدم لورنس والكونت دي باريس في جماعة من أهله، ولم يكن الخبر قد بلغ أسماعهم بعد. قال الراهب:

– هل استعدت العروس للذهاب إلى الكنيسة؟

فأجابه الشيخ والدمع في عينيه:

– نعم استعدت للذهاب، في غير عودة. وتأهبت للرواح ولكن بغير رجعة.

والتفت إلى الكونت دي باريس؛ فقال:

– لقد جاء الموت يا بني فاستبقك إليها قبل يوم زفافها. وها هي ذي كما ترى نائمة، زهرة كعهدك بها، ولكن الموت أبلاها، وعدا عليها فاهتصر غصنها الرطيب. فكان هو الصهر لي والوريث والنسيب. لقد بنى الموت بفتاتي، واقترن بوحيدتي؛ فأنا اليوم أموت تاركا له كل شيء. الحياة ذاتها والعيش وما حوى.. كل شيء إلى الموت راجع.

وكان الحزن قد فجعه وضعضع قواه، فتهالك على مقعد قريب منه وأسلم نفسه للأسى.

أما الكونت دي باريس فقد لبث في مكانه مبهوتا موجعا، إذ كان يحب جولييت حبا صادقا متناهيا. وقال وقد نزل المصاب به أسوأ منزل:

– رباه أكنت أترقب هذا اليوم ملهوفا مشوقا إليه لكي يطالعني صبحه المشئوم بهذا المشهد؟

وجعلت أمها تندب قائلة:

– يا له من يوم ملعون محزن مشئوم بغيض. يا له من نهار أسوأ ما دار به الفلك وأشنع ما جرى الزمان في دورته به. ويلتاه.. أتكون لنا ابنة وحيدة عزيزة محببة هي مصدر سعادتنا، وعزائنا، فيختطفها الموت منا على هذه الصورة.

وظلت المرضعة تولول وتعول وتتسخط على اليوم ومطالعة وتملأ أفق البيت صياحا ونحيبا:

– أيها اليوم المليئ بالأحزان.. أيها اليوم المنكر المشئوم البغيض في الزمان. أيها اليوم الشقي الذي لم تفتح على مثله العينان.. أيها النهار الأسود ما في الحلكة أشد سوادا منك.. يا ويلاه.. ما لي على الصبر يدان.

وعاد الكونت دي باريس في توجعه وتحسره يقول:

– أيها الموت لقد غدرت بنا. وفرقت بيننا. وعدوت علينا، وهدمت آمالنا. فما أقساك أيها الموت. وما أقسى خداعك وأشد مكرك.. أواه.. ما أوجع الحب في الموت!.

وأنشأ الشيخ يندب فتاته بقوله:

– أيها الدهر الخائن.. لقد سخرت منا، وأنزلت قسوتك علينا وأوديت بهناءتنا. وافتاتاه.. لقد فارقتني. فبموت ابنتي ذهبت أفراحي إلى الأبد.

ولما ساد الصمت، فلا تسمع غير الإجهاش والانتحاب الخافت، انبرى الراهب وكان إلى هذه اللحظة يتراءى بالحزن والجزع مثلهم.. يهيب بهم قائلا:

– على رسلكم يا سادتي وكفكفوا الدم، واعتصموا بالصبر، فعزاء جميل، والله يتولاكم برحمته. وما لكم في هذه الجلبة من خير.. ولا في المناحة من تعزيه ولا سلوى شافية. لقد اختار الله لجواره فتاتكم الحسناء التي رزقكم بها

وهو صاحب الشأن استرد وديعته. وهو الخالق استعاد خليفته. وإنه للفتاة لنعم المسترد. وأحسن الجوار. وما في استطاعتكم أن تحتجزوا نصيبكم فيها من يد الموت. ولكن السماء حفظت نصيبها فيها بالحياة الباقية.. لقد كنتم تريدون سعادتها، وكان جُل مناكم هناءتها ورغدها.. فعلام البكاء الآن عليها. وقد آثر الله لها سعادة أكبر من سعادتكم ورغداً أسمى في السماء من رغد أرضكم ودنياكم. أتبكون وتنوحون لأنها قد صعدت السماء حيث ترتقبها مواكب، وتتلقاها محافل من الملائكة، ويحف بها من سكان الجنة مهرجان.. إنكم في حبكم لها تحبونها أسوأ ما يكون الحب. وأقسى ما يكون الحنان لأنه الجنون المستسلم للأحزان. أفبكاء عليها وهي بخير، وحزن عليها وهي عند الله في أمان؟.. إن السعيدة ليست من تطول بها الحياة وهي في إسار القران. ولكنها من تموت عروسا في الريعان والعنفوان. ألا كفكفوا العبرات.. وكفوا عن النحيب والزفرات.. وهيا زينوها بأحسن ما عندكم من زينة مختلفة الألوان، ولفوها في أنضر الثياب، وطرائف الأردية، واحملوها إلى مثواها الأخير في مهرجان.. فإن كانت الطبيعة تقضي علينا بالأحزان، فإن سلوى دموعها في التجلد والعقل والنسيان.

فتجلد الشيخ لمصابه، واستجمع قواه للتغلب على أحزانه، وأنشأ يقول:

– الحق قلت يا أبت والصدق نطقت، فهيا أحيلوا كل ما أعددناه لفرحها، مهيئاً مجهزاً لدفنها والمسير بها إلى قبرها وضريحها، ولتصدح الموسيقى بأنغام الحداد عليها وليكن احتفالنا بزفافها احتفالا بتشييع نعشها ولتنقلب أغانينا وأناشيدنا ترتيلا ومزامير على فراشها، وزهور عرسها تصلح نثير ريحان على جدثها. ولتستحل كل الأشياء اليوم إلى أضدادها. فكذلك هي

مشيئة القوة الإلهية ومرادها..

وكان الراهب يخشى أن يبطئوا في حمل جولييت إلى المقبرة، فتقدم إلى الشيخ وزوجته يواسيهما ويخفف ما بهما بعظاته وكلمة الدينية، وطلب إلى الكونت دي باريس أن يرافقهما ولا يتركهما نهباً لأحزانهما. وبدأ هو يعمل في نشاط ولهفة على إعداد معدات الدفن، والتعجيل بالدفن؛ فزينت جولييت بأفخر ثيابها وأغلى حلاها، وحملت من سريرها فوضعت فوق نعش حاسرة الوجه، مكشوفة المحيا، ونثرت الزهور من حولها طاقات وأكاليل بهية. ومشت حسان روما وغيرها صفوفا في جنازتها بثيابهن البيض وطاقاتهن الزاهية. وسار الموكب تتقدمه المعازف والموسيقى تعزف ألحانا حزينة شجية ومشى في نشدها آل كابوليت جميعا ومعارفهم وأكثر سكان فيرونا وساداتها يتقدمهم الكهنة والشمامسة في شموع وأضواء باهرة. وجعلت أجراس الكنيسة تدق دقاتها المحزنة، حتى بلغوا الهيكل، فأقاموا القداس عليها.

ونقلت جولييت فوق نعشها إلى مقبرة آبائها الأولين وسط الدموع والزفرات والإجهاش والأنين.

القسم الخامس

-١-

وصل روميو إلى مانتوا التي نصح له الراهب أن يتخذها منفاه، وفي تلك المدينة لزم العزلة. وانتبذ الناس، وأخلد إلى أحزانه وآلامه فجعل ينهض باكراً، وينطلق إلى أنحاء المدينة، متنقلا بين الغياض والرياض، مسائلا نفسه هل تقيض الأقدار الرحيمة له أن تجمع بينه وبينها، ويكون لقاء بعد فراق. فإذا ما عدلت الشمس إلى المغرب، وأمسى المساء، عاد أدراجه إلى مسكنه، فقضى أكثر ليلة مسهداً مؤرقا يناجي القمر ويرعى النجم في سهره ويساءل الكواكب السيارة عن جولييت وأحوالها، وهل أسهدها الذي أسهده، وأرقها ما أرقه، أم تراها قد سلت، وذهب هو من خاطرها نسيا منسيا. ففي ذات ليلة رأى فيما يرى النائم حلما استيقظ بعده منشرح الصدر مسروراً. وجعل يقول لنفسه:

– ليت الأحلام تصح، وبودي لو أرى ما طاف في الكرى بخاطري محققا. فإني مستبشر به خيرا. شاعر بأني سأسمع عما قريب أخباراً سارة لقد كان النوم في ليلتي البارحة مسعداً. وقد صحوت اليوم على غير عادتي أحس كأن روحا غريبة ترتفع بي من فوق الأرض. وتسمو بي في الأفق. وتلهمني أسعد الخواطر. وتملأ نفسي فرحا وابتهاجا.. لقد حلمت بأن حبيبتي جولييت جاءت فوجدتني ميتاً.. فيا له من حلم عجيب يرد الميت مفكراً. ويلهب الخيال خواطر.. وإذا بها تعيدني إلى الحياة بقبلاتي. وتنفخ في بدني الروح ثانية من شفتيها فإذا بي قد عدت حياً. واستحلت ملكا عظيما رب عرش وسلطان وملك كبير. ما أجمل الحب وأروعه في ذاته ومعناه، إذا كان

مجرد أحلامه وأطيافه حافلة بكل هذا الفرح العظيم.

وأقام يومه يترقب تحقيق ما صورته له أحلامه إلى أن مضت ساعات من النهار، ولم يعرض له شيء. ولم يتلق من نبأ. فاستولى عليه فجأة انقباض شديد. وقلق غريب. وفيما هو كذلك إذ دخل عليه خادم من فيرونا يدعي بلتازار، عليه من وعثاء السفر غبار. فما كاد روميو يراه مقبلا عليه حتى هتف من فرح بالغ. وسرور زائد:

– لقد جاءت من فيرونا أخبار.. أهلا بك يا بلتازار.. ما الذي أقدمك علينا وماذا تحمل من الأنباء إلينا.. أرسالة جئت بها من الراهب، وكيف حال جولييت زوجتي، وأبي كيف هو، بل كيف هي جولييت إني أسألك للمرة الثانية، إذ مادامت بخير، فالدنيا كلها بخير، ما عليها من سوء.

فأجاب الخادم قائلا:

– أما وقد قلت ذلك فهي بخير، لأن جسدها يرقد في الثري، وروحها الخالدة مع الملائكة، فقد رأيتها توسد في مقابر آبائها، فما ترددت لحظة في السفر إليك مسرعا لأحمل النبأ إليك عاجلا، فمغفرة لي وصفحا، إذا أنا جئتك بهذا النبأ الأليم، لأنك قد وصيتني قبل رحيلك أن أكون أول منبئ لك بما يحدث لها.

فاستولى على روميو في نعي جولييت إليه غم تركه مشدوها معقول اللسان طائر اللب جامد الحركة كأنه قد استحال وثنا من صخر أو تمثالا من حجر صلد. وجمدت عيناه فلم تبكيا، من فرط الحزن، وشدة الأسى. وما لبث أن استحال ذهوله إلى غضب موحش رهيب، وجنة مخيفة مرعبة.. قال:

– أهكذا قد حل الخطب، وفدح الأمر، وشاع الخبر.. أيتها السموات إني

لمتحديك أنت والقدر، فاذهب يا صاح اختر لي أحسن الجياد واستأجر، فإني من الليلة على سفر..

فجزع الخادم من مشهده. وتأثر من فجيعته، ووقف مترددا لا يذهب وانثنى يقول له:

– صبرا يا سيدي ولا تجزع للخبر، فإني أراك شاحب اللون مستطار اللب وأخشى عليك أن يحدث لك ما لا تحمد معه العاقبة.

فصاح به قائلا:

– إنك لمخدوع، وما عليك إلا أن تصدع بما تؤمر. ألم تحمل إلى كتبا من الراهب؟

– كلا يا مولاي.

– لا بأس.. اذهب الآن فاستأجر الخيل صافنة، فلن ألبث أن أوافيك لنسافر معا.

وما أن تركه الخادم لينفذ أمره، حتى استسلم روميو لأحزانه، وراح يدفن وجهه في راحتيه، ويطلق للبكاء فيضه ومدراره، ويناجي النفس قائلا:

– أي جولييت، سيحتويني مضجعي بجانبك الليلة في مساكن الآخرة ولكن كيف السبيل. أيها الشر، ما أسرع مسراك إلى أخلاد اليائسين.. فإني قد تذكرت اللحظة صيدليا يقيم غير بعيد، ولاحظت منذ أيام عليه أمارات الفاقة بادية ثوبا مهلهلا، وجبينا عابسا مكفهراً، ونظرا شاردا مستطيراً، ونحولا ظاهرا بدت من أثره عروقه وعظامه، وقد شاهدته في الحانوت قد علق سلاحف وجلوداً وتماسيح، ولم تعد صيدليته تحوي غير أحقاق فارغة، وصناديق خاوية. وأوعية من صلصال كالفخار، ومنافح وبذورا وأعشابا

يابسة وبقايا زهور جافة ذاوية فلا أحسب فاقته هذه بمانعته من أن يبيع سما لمن يحتاج إليه وأن كان على بيعه في القانون العقاب بالموت، فلأذهب الساعة إليه فإن منزله منا قريب.

وما كاد يدور هذا الخاطر بخلده حتى انطلق مسرعا إلى الحانوت فوجده موصدا. إذ كان اليوم عيدا. والحوانيت فيه مغلقة. فنادى من وراء الباب قائلا:

- أيها الصيدلي افتح فإني بحاجة إليك.

فما لبث أن خرج إليه الصيدلي يقول:

- من ذا الذي يناديني؟

- اقترب مني أيها الشيخ فإني أريد معك حديثا

فأجابه الصيدلي وهو يدنو منه:

- هاأنذا يا سيدي.. فما حاجتك؟.

- إني أراك شيخا أخا متربة يعوزك المال. فخذ هذه الأربعين ديناراً واتني من سم زعاف سريع المفعول يسري في المفاصل والأوردة وشيكا فيودي بالحياة في لحظة واحدة ويريح اليائس المعذب في هذا العالم الشقي الأثيم، في مثل سرعة القذيفة الخارجة من فوهة البندقية القاتلة.

- عندي من السموم ما يطابق طلبتك ولكن القانون في مانتوا يقضي بعقوبة الموت على من يبيعه للناس

- يا عجبا. أو تكون على هذه الصورة من الفاقة والتجرد والبأساء ثم تخشى الردى. أثر المسغبة على وجهك. والحاجة والحرمان يطلان من عينك، والفاقة انقضت ظهرك، فليس العالم لك بحليف، ولا شرائعه لك بموالية،

ولن تكون في هذه الدنيا يوما غنيا ولا صاحب ثراء، فخذ هذا المال ليغنيك، ولو بكسر القانون.

– فاقتي تجيبك إلى ما طلبت وإن كانت إرادتي تأبى.

– إنني إنما أشتري فاقتك ولا أشتري إرادتك.

فانسل الشيخ إلى الحانوت، وما لبث أن خرج يحمل قارورة في يده فدفع بها إلى روميو قائلا:

– خذ هذا الشراب فامزجه بقليل من الماء واجترعه مرة واحدة، فإنه قاض عليك في الحال، وإن كنت القوي الشديد البأس المكين.

– وهناك الذهب الذي حددته لك، فإنه والله شر من السم زعافا، وأشنع مقتلا، وأعظم مصرعا، فلطالما دق الأعناق وقتل النفوس وأودى بالحياة. لقد بعتني سما بسم، وزعافا بزعاف فالوداع أيها الشيخ، اذهب اشتر طعاما، لتكسو هذه العظام لحماً، وأنت أيها السم، بل أيها النصير الرحيم.. تعال لنذهب إلى جولييت وليكن على قبرها شرابك. نعم الشراب، وحسنت مرتفقا.

–٢–

عاد الراهب لورنس من جنازة جولييت إلى صومعته، فلم يتردد في إرسال كتاب إلى روميو يشرح له فيه حقيقة ما جرى وسر هذا الموت المصطنع، ويطلب إليه القدوم سراً في الموعد المرتقب ليحمل جولييت من المقبرة ويعود بها في خفية فلا يعلم الناس من أمرهما شيئا. فلما كتب رسالته استدعى أحد زملائه. وكان يدعى الراهب يوحنا.. فدفع بها إليه ليحملها إلى روميو في مانتوا فخرج هذا ليتأهب للسفر. ولبث الراهب لورنس قلقا يعد الساعات ويرتقب

عودة الرسول ليطمئن إلى وصول الرسالة إلى روميو حتى يحضر قبل فوات الأوان.

ومضت الليلة الأولى على الراهب وهو قلق نافذ الصبر حتى إذا انبثقت خيوط النهار خرج إلى بستانه يتفقد أزهاره ومنابته وحياض وروده. وانقضى النهار وأذن المساء. ولم يعد الرسول فاشتد جزع الراهب وتناهى قلقه. وفيما هو كذلك إذ سمع صوتا يناديه. فاستطار للنداء لبه وقال:

- ما هذا إلا صوت الراهب يوحنا قد عاد من مانتوا.

واستبق الباب وابتدره مسائلا:

- ماذا قال روميو؟ وأين الكتاب الذي تحمله منه؟

- لم أذهب أيها الأخ بعد.

فكاد قلب الراهب ينخلع من الجزع والرعب. قال:

- يا الله. وما الذي عاقك عن السفر؟

- لقد خطر لي قبل السفر أن أصطحب زميلا في رحلتي؛ فبحثت عنه حتى وجدته في أحد المنازل يعود بعض المصابين بالطاعون، وفيما نحن في الدار على وشك الخروج لنسافر إلى مانتوا برسالتك بادرنا مفتشو الصحة فضربوا حول البيت نطاقا ومنعونا من الخروج بدعوى أننا قد حملنا العدوى من المرضى فيه، فعاقني ذلك عن السفر عاجلا كما أردت.

فكاد الراهب لورنس يخر صعقا، قال:

- ومن الذي حمل رسالتي إذن إلى روميو؟

- لم استطيع إنفاذها إليه، وها هي ذي معي، إذ لم أجد أحدا يردها إليك،

فقد خشي الجميع العدوى وملئوا منها وهما ورعبا.

فصاح الراهب لورنس قائلا:

- يا للقدر الساخر!

وأحس كأن الأرض تميد به. لقد خذلته الأقدار وخانه التوفيق. إذ تبين له أنه لم يعد يفيد إنفاذ رسول آخر إلى مانتوا، فإن روميو سوف لا يصل قبل يقظة جولييت وهي في قبرها، ورأى أن لا مفر من الذهاب بنفسه ليكون على مقربة منها عند انتباهتها من الغشية العارضة. قال لزميله:

- لقد كان الكتاب يحمل أنباء خطيرة، وأخشى أن ينجم عن إهماله خطر عظيم، فاذهب يا صاح على عجل وآتني بخطاف من حديد ولا تبطئ.

- سآتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك..

وما لبث أن جاء بما طلب. فتناول الراهب الحديدة والمشعل وهو يقول لنفسه:

- ينبغي أن أذهب في الحال إلى المقبرة فإن جولييت سوف تستيقظ خلال الساعات الثلاث القادمة، وسوف تلومني كثيراً على أنني لم أبلغ روميو أنباء ما جرى. ولكني سأكتب إليه كتابا آخر وأبعث به إلى مانتوا وأحتجز جولييت حين تستيقظ في صومعتي حتى يعود روميو إليها. رباه. ماذا تراها صانعة إذ تجد نفسها جثة حية محتبسة في قبور الموتى

وفي الحال كتب رسالة أخرى إلى روميو ودفع بها إلى الراهب يوحنا ليحملها إلى مانتوا غير متردد ولا مبطئ، وحذره من إهمالها في هذه المرة وطلب إليه أن يبذل كل جهده في إبلاغها مهما كلفه ذلك من مشقة. فوعده يوحنا أنه عامل على تنفيذ مشيئته وخرج ليسافر في الحال.

وكانت الليلة حالكة السواد. والظلام غامر بهما. وأما هو فسار يحمل المشعل إلى مقبرة آل كابوليت حيث ترقد جولييت بين الموتى.

-٣-

وبينما كان الراهب يتلمس طريقه وسط الظلام الدامس إلى مقبرة آل كابوليت، كان رجل آخر قد وصل إليها وقد اصطحب خادما له يمشي في أثره حاملا مصباحا يضئ الطريق وزهور لنثرها على قبر جولييت. وتقدم ذلك الطارئ الزائر في فحمة الليل إلى باب القبو ففتحه وتناول المصباح والزهور من خادمه، وكان ذلك الطارئ هو الكونت دي باريس. وانثنى إلى الخادم فقال له

- اذهب الآن فانتظرني في ناحية من هذا المكان. بل خذ المصباح فأطفئه فإني لا أريد أن تراني عين ولا يكشفني بصر. واجعل موقفك تحت هذا الدوح البعيد الذي ترى على مدى نظرك قائما وارقب الوقت وارهف السمع حتى لا يطأ هذه الأرض قدم إنسان آخر فإنني أرها رخوة لينة، عديدة الحفر من طول نبش القبور وفتح اللحود. فإذا ما سمعت وقع أقدام فنبهني بصفير من فمك. والآن هيا ولا تعص لي أمرا.

وتركه ومضى بين المقابر فانزوى الخادم رعبا، وملئت نفسه من رهبة المكان فرقا وهلعا. ومشى ليبتعد كما أمره مولاه. وهو يرعش خوفا ويخيل إليه أن الأشباح مجتمعة عليه. أما الكونت فقد دنا من قبر جولييت وراح ينثر الزهور عليه وهو يقول:

- أيتها الزهرة اليانعة على مرقد عرشك جئت أنثر زهرا. فيا ويح الدهر. لقد استحال مخدعك ترابا وصخرا ورمما بالية وعظاما نخرة فجئت مع الليل أرطبه بالماء العذب قطرا فقطرا. ولئن عز الماء فلتكن الدموع يرسلها

الأسى مقطورة مطهرة. وليكن فرضا على أقيمه مع الليل لا أتركه أبدا. أن أنثر على قبرك ريحانا ووردا وأسيل دمعا صيبا مدرارا.

وفيما هو على هذه الصورة ينثر الزهر، ويبكي ما شاء الله أن يبكي إذ سمع صفيراً. فانتبه وهو يقول لنفسه:

- أسمع صفير غلامي، فلا بد أن يكون أحد من الناس قادما، فأي قدم ضالة جاءت تهيم في هذا المكان والليل مدلهم، وتطأ مضجع حبيبتي المخلصة وتعكر على النفس فريضتها المقدسة. يا عجبا.. هذا طارئ غريب يحمل مشعلا، أيها الليل اخفني قليلا لكي أرى من هذا الذي جاء متسللا..؟؟

وأطفأ مصباحه واختفى وراء قبر غير بعيد ووضع يمينه على مقبض سيفه مترقبا محاذراً.

-٤-

وبعد أن تناول روميو السم من الصيدلي الرقيق الحال وجد بلتازار الخادم قد استأجر له جواداً صافيا فركبه لساعته وخرج من مانتوا يريد فيرونا، وقد كاد الليل يرخي سدوله، فخب الجواد به ينهب الأرض. وقبل أن يدخل المدينة مر برجل في طريقه. وكان القمر محتجبا خلف السحاب الثقال والحلكة سائدة، فلم ينتبه إلى حقيقته وترك الجواد يعدو به لا يلوي على شيء.

وكان ذلك المدلج في ظلمة الليل هو الراهب يوحنا يريد مانتوا ليدفع إلى روميو برسالة الراهب لورنس؛ ولو أنه عرفه في تلك اللحظة لأدرك حقيقة أمر جولييت ومماتها المصطنع. ولكن مشيئة المقادير أبت إلا أن يمر به ولا يعرفه، والأقدار حين تشاء أمراً فلا مرد له، ولا حائل دونه. ونزل روميو عن صهوة

جواده حين دخل المدينة. وكان قد حمل خادمه بلتازار مشعلا ومعولا وبعض أدوات الحدادة فوصل إلى المقبرة بعد لحظة قصيرة من قدوم الكونت دي باريس إليها.

قال وهو يهم بالدخول:

– هات يا صاح ما تحمل، وخذ هذا الكتاب فاحمله إلى أبي مع مطالع الصبح. وأعطني المشعل وتنح عني بعيداً لكيلا تسمع ولا ترى.. وحتى لا تقطع على ما أنا فاعله! فإني معتزم أن أهبط إلى هذه القبور وأنزل إلى مراقد الموت، ومساكن الآخرة لأشهد محيا حبيبتي وأملي العين من طلعتها الباهرة. ولكي آخذ من أنملتها الخامدة الباردة خاتما ثمينا أريد أن أحتفظ به تذكاراً غاليا وأثراً باقيا. فاذهب، واعلم إذا عدت وهاج بك الفضول فجئت لتسترق النظر إلى ما أنا منتو أن أصنعه فو حق السماء إني لممزقك تمزيقا ومقطع أشلاءك إربا وثائر عظامك في هذه المقبرة لتكون للديدان طعاما. إن ظروفي ومقاصدي لموحشة مخيفة رهيبة.. بل هي والله أهول وأرهب من ضراوة النمر الجائع وهياج البحر المصطخب. وزئير أليم المعتلج الأمواج..

فأجابه الخادم وهو في رعب شديد:

– هاأنذا ذاهب يا مولاي، ولن أزعجك أو أعصي لك أمراً.

– أحسنت، ففي ذلك برهان محبتك لي وإخلاصك. فخذ هذا المال استعن به على الحياة وعش في رغد.. والوداع أيها الخادم الأمين.

فتناول بلتازار المال منه واستدار لينصرف وهو يقول لنفسه:

– لن يمنعني هذا من أن أختفي هنا في مكان غير بعيد، فإني أرى من نظراته

ما يملأ النفس رعبا مما هو مقدم عليه.

وكان خادم الكونت دي باريس قد رآهما وإن لم يرياه فأطلق صفيره كما أسلفنا.. ولكن روميو لم ينتبه إليه لأنه كان ثائر النفس في أشد حالات الحزن والاضطراب. وتقدم نحو المقبرة وهو متسلح بحسامه وخنجره. وأنشأ يناجي القبر قائلا:

– يا حفرة الموت الرهيبة. لقد ابتلعت في جوفك الرهيب آخر قطعة من الأرض، وهاأنذا قد جئت لأفتح بالإكراه فكيك، وألقمك على الرغم منك، طعاما جديدا، وضحية أخرى غالية.

ثم قبض على معوله، فأهوى به في جنون مخيف، على باب القبو فانفتح وشيكا، إذا كان الكونت دي باريس من قبله قد فتحه، لكنه تركه في أثره مقفلا. وانتبه الكونت على صدى تلك الضربة من ذهوله فدنا من الضارب ليتعرفه.. وما أن أبصره حتى عرف أنه روميو، فعجب أشد العجب من حضوره واقتحامه مقابر آبائه. وظنه قد جاء ليعتدي على حرمة قبر جولييت وجدها، لأنه لم يكن يعلم بحب روميو لها. فمشى إيه يقول:

– هذا هو روميو مونتاجو المتكبر أخو الخيلاء الذي نفي من المدينة لقتله ابن عم حبيبتي وقد أورثها على فقده الهم والحزن فكان سببا في مماتها، وما أحسبه إلا قد جاء لتنهك حرمة الموتى حقدا منه وبغضا. وعداوة منه وموجدة.

وما كاد يدنو منه حتى أهاب به:

– قف أيها المونتاجي الأثيم عن فعلتك المنكرة وجرأتك الشنعاء.. فهل بلغ بك الحقد إلى هذا الحد حتى لتريد أن تجعل انتقامك يتجاوز حدود الموت،

ويمشي إلى أبعد من الردى. أيها الشقي المحكوم عليك. إني لمعتقلك فامض معي ولا تحاول عصيان أمري. فإن قصاصك الموت لا محالة.

فانتفض روميو من ذهلته واستدار إليه وراح يقول:

- للموت جئت، والردى أبتغيه.. فلا تحاول أيها الفتى الطيب الكريم أن تهيج غضب رجل يائس من الحياة، مودع الأمل في العالم. ناشدتك الله اذهب ولا تتردد، اذهب عني لشقوتي ومصابي، وفكر في هؤلاء الموتى الذين ذهبوا من قبلك في الغابرين، لعل التفكير فيهم عادل بك عن المكث، والعبرة بهم مطلقة ساقيك للريح.. أناشدك أيها الفتى، لا تجعلني أرتكب خطيئة أخرى بقتلك قبل الموت، ولا تثر حفيظتي عليك وغضبي. أي والله اذهب ولا تتردد فو حق السماء إني لأؤثرك الآن على نفسي، إذ جئت إلى هنا كارها لها غير مبق عليها، متسلح للإبداء بها.. هلم ابتعد لتحيا وتبقى في هذه الدنيا، وتقول فيما بعد لقد نجوت من الردى بفضل رحمة مجنون راشد.

فلم يأبه الكونت دي باريس بوعيد روميو ولا اكترث لمناشدته له، بل أجابه قائلا:

- لست أحفل بهذه المناشدات منك ولا أعبأ بهذا النذر، ولكني أقبض عليك لأنك مجرم اقتحم مساكن الموتى.

فما كان من روميو إلا أن استل حسامه وقد تولته سعرة غضب مخيف، وراح يصيح به قائلا:

- يا عجبا.. أتتحداني بعد كل هذا وتثير ثائرتي. إذن فخذ يا فتى لنفسك الحذر.

وفي الحال استل الكونت حسامه واشتبك العاشقان على قبر جولييت. هذا زوجها، والآخر خطيبها، وكلاهما لها المحب والعاشق والمغرم المستهام. وكان باريس فارساً بالسيف حاذقا. ولكن روميو كان به أحذق وأمهر وزاده اليأس جرأة، وفعلت بنفسه ثورة الحزن وجنة الأسى. فما جال المتبارزان جولة قصيرة حتى سقط باريس يتخبط في دمه وقد اخترق سيف روميو صدره فأرداه قتيلا. وكان خادمه قد رآهما وهما يتجالدان فامتلأت نفسه رعبا وذهب يلتمس حراس المقبرة. وأخذ الكونت الشهيد في حبه لجولييت يجود بأنفاسه الأخيرة. وقال وهو محتضر توشك الحياة أن تفارقه.

– رباه.. إنني أموت فإن كانت في نفسك بقية من رحمة فافتح القبر وأرقدني بجانب جولييت.

فانحنى روميو عليه متفجعا له حزينا عليه وهو يقول:

– يمين الله إني لفاعل. فدعني أرى الوجه منك وأشهد المحيا.

وما كاد يفعل حتى بهت ودارت الأرض به لقد عرف من هذا الصريع الذي قتله. قال مبهوتا:

– من ذا أرى.. قريب مركرتيو. الكونت دي باريس النبيل الكريم المحتد الباذخ المجد.. ماذا قال خادمي ونحن قادمان. فإن خاطري كان ذاهلا شاردا فلم انتبه لقوله. رباه.. لقد تذكرت الآن.. فقد نبأني أن باريس كان يريد بجولييت قرانا.. يا ويلتا.. أتراه حقا ذلك لي.. أم ذا حلم تراءى لي هكذا وما هو به.. أم تراني مجنونا يتخيل.. ومخبولا يهذي.. ومدخولا اختلط عليه أمره.. أواه. هات يدك أيها المسكين الشقي الذي كتب اسمه معي في كتاب شقوتي.. تعال أوسدك القبر الكريم الذي تزاحم عليه العزة

الشهداء. وتنافس في الظفر بمراقده الأحباب والأعداء. ويحي أسميته قبرا.. لا والله ما هو بقبر.. إنه لمنار.. يعمه الضياء كالنهار.. لأن جولييت فيه. وضياء حسنها الباهر يتفجر خلاله فيملأ نواحيه وهجا وسناء. أيها الميت تعال أوسدك هنا. ومن عجيب أن يوسد الميت ميتا مثله ويدفن الدفين دفينا سواه..

واحتمل جثة الكونت فوسدها بجانب جولييت وأنشأ يقول:

- من غريب أمر الموت أن الذين يوشكون أن ينحدروا واديه، كثيراً ما يغشاهم المرح، وتنطلق أرواحهم الذاهبة للحياة.. والناس قائلون تلك هي صحوة الموت، أو هي البرق الملتمع قبل الانطفاء، وها هو ذا البرق الخاطف يأخذ بنفسي في هذه اللحظات المستبقة الفناء.

واقترب من تابوت جولييت فأطل عليها فوجدها حاضرة المحيا وكأنها في سبات عميق، فناداها.

- أي حبيبتي جولييت. أي زوجتي. إن الموت الذي ارتشف من شهد شفتيك، وامتص أنفاسك، لم يقو على استلاب حسنك واستراق جمالك، فأنت على الموت الغالية، وفوق الردى المنتصرة القاهرة.. وهذا جمالك على عهد الدنيا به، وهذه سماته، الأرجوان منك على الشفتين ولهيبه يتلظى فوق الخدين، كأن الموت لم يزحف فينصب علمه الأصفر فوق الوجنتين. أي تيبالت!. ألست ثاويا هنا في أكفانك الدامية، أي صنيع إليك أسدى أو في من أن أجعل اليد التي هصرت غصن شبابك هي ذاتها اليد التي تخطف روح عدوك وتستلب حياة غريمك. فيا ابن العم صفحا، ويا نسيبي غفرانا. وأنت يا جولييت الحسناء، عجبي لحسنك لا يزال على رونقه باقيا. هل أحسب الموت مثلي مغرما، محبا للجمال، وعلى الحسن

مثلي حانيا. أم تراه في مكره قد احتجزك في هذا الموضع القفر والمكان المظلم.. لينعم بحسنك وينفرد بحبك رائحا غاديا. ألا فأعلمي أيتها العزيزة أنني من خشية مزاحمة الموت لي سأظل هنا الدهر ثاويا. ولن أفارق موضعي منك. فإن فيه راحتي الأبدية. حبيبتاه.. زوجاه.. هاأنذا انتزع نير كوكبي النحس. وحظي التعس من هذا البدن الذي سئم الحياة. فيا عيني انظرا آخر ما تنظران. وودعا من جولييت نهاية ما تودعان.. ويا ذراعي خذا منها آخر الأحضان. ويا شفتي.. وأنتما باب أنفاسي، اطبعا على شفتيها قبلة القران، واختما وثيقة الموت بطابع الختام.

وانحني عليها يعانقها ويقبلها قبلة الوداع، وراح يتناول قارورة السم وهو يناجيها قائلا:

– هلم أيها السم الزعاف. هلم أيها المرشد الذي هو مع الأمل كريه يعاف.. تعالي أيتها النفس زورقك المتعب المنقلب فوق الموج فاقتربي من ضفاف الأبدية وصخرة النجاة وساحل الأمان.

ورفع القارورة إلى شفتيه فاجترع السم اجتراعا حتى الثمالة وما لبث أن غمغم قائلا:

– لقد صدقت أيها الصيدلي فإن سمك لسريع.

وعاد إلى جولييت فطبع على وجهها قبلته الأخيرة، وهو يغمغم في حشرجة المحتضر:

– هاأنذا بقبلة أموت.!

وما لبث حتى فارق الحياة طريحا بجانب تابوت جولييت.

-٥-

وكان الأب لورنس قد خرج من كوخه في سكون الليل قاصدا إلى المقبرة ليكون بجانب جولييت عند يقظتها حين يذهب أثر المخدر الذي تناولته. وقد اعتزم كما أسلفنا أن يحتملها إلى صومعته ريثما تصل رسالته الثانية إلى روميو فيأتي مبادراً باكرا ليأخذها ويذهب بها إلى حيث يعيشان في هناءة ورغد. ولكن الراهب لم يلبث في طريقه إلى المقابر أن أحس انقباضا شديدا لم يدر سببا له. وإنما عزاه إلى ظلمة الليل ورهبة الأمر الذي هو مقدم عليه. وما كاد يبلغ الموضع حتى وجد الباب مفتوحا فأنكر ما رأى وأوجس خيفة. ولكنه هبط السلم المؤدي إلى ساحة المقبرة وهو يقول لنفسه:

- ليكن الله رائدي وبركة القديسين شفيعتي فلكم عثرت قدماي الليلة بعظام الموتى وأشلاء الهلكى وحفر الثاوين في مضاجع الآخرة. ولكن رباه.. من هذا الذي أرى؟

وكان بلتازار خادم روميو منزويا هناك وهو في خوف شديد، فلما سمع صوت الراهب ورأى شبحه يدنو منه، هدأ روعه، وذهب الخوف عنه، فأجاب بقوله:

- صديق يعرفك حق المعرفة

- ليباركك الله يا ولدي.. نبئني أيها الصديق الكريم. ما هذا المشعل الذي يلوح هناك مرسلا بصيصا من الضياء على الأشلاء والجماجم المجوفة أحسبه يضيء في مقبرة آل كابوليت ومدافنهم.

- هو ذلك يا أبت. وذا مولاي هناك وهو صديقك وعزيز عليك.

- ومن هو يا بني؟

– هو روميو يا أبت.

فعجب الراهب مما سمع أشد العجب وخفق قلبه. وقال مبهوتا:

– ومتى تراه يا بني قد وصل؟

– منذ نصف ساعة أو يزيد.

فطلب الراهب إليه أن يصحبه ليدله على المقبرة. ولكن الخادم استعفى قائلا:

– لست أجسر يا أبانا.. فإن مولاي لا يعلم أنني هنا. فقد هددني بالموت إذا أنا بقيت لأنظر ماذا هو صانع.

– امكث إذن، ولأذهب أنا وحدي.

وتقدم يمشي وئيداً وقد هجس بخاطره هاجس أخافه وسرى في نفسه جزع فجائي من هاجس سيئ لا يدري ما هو ولا يعرف كنهه. وما كاد يدنو من التابوت الذي سجيت جولييت فوقه حتى تراجع مذعورا إذ أبصر دما قد خضب الأرض وصبغ الثرى. قال:

– رباه.. أدماً أرى.. وما هذان السيفان الطريحان الملطخان بالدم في هذا الموضع الساكن لا يحوي أحدا؟!

ومشى خطوات أخرى فتبين جثة روميو فصاح مبهوتا:

– رباه.. وهذا روميو!

ثم أبصر جثة أخرى بجانب التابوت فقال مرتعداً:

– ومن هذا الطريح عن كثب.. الكونت باريس غارقا في دمه؟

وقف جامداً، مذهول اللب، شارد البصر، فغمغم قائلا:

– أي قدر عجيب عبث بنا هكذا وسخر..

وفي تلك اللحظة بدأت جولييت تتحرك في مرقدها وتوشك أن تستيقظ، فاشتد جزع الراهب وتناهى الخوف به، فوقف ينظر كأنه قد ارتد تمثالا من حجر أصم.

وفتحت جولييت عينيها. فلم تدرك من أول وهلة شيئا فأرسلت بصرها فوجدت الراهب حيالها فلم تلبث أن تذكرت ما كان منها فقالت:

– أأنت ذا أيها الراهب الكريم.. فأين زوجي؟.. لقد تذكرت الآن الموضع الذي كان مقدراً أن أجدني فيه، وها أنا قد صحوت. فأين روميو.. أين حبيبي العزيز؟

فلم يدر الراهب ماذا هو مجيب به عن سؤالها. فلبث حائراً متردداً وعند ذلك سمع صوت حركة وطرق أذنيه لغط وخليط من ضوضاء. فتولاه الرعب. قال:

– أسمع أصواتا فانزلي يا ابنتي من مرقدك. وغادري مضجع الموت والنوم المصنوع والمثوى بين العظام النخرة. فإن قوة أكبر من قوتنا. وإرادة أعظم من إرادتنا ومشيئة لا نستطيع لها دفعا ولا ردا. ولا نملك لها اعتراضا. قد أفسدت علينا ما أردنا. وعكست علينا مقاصدنا. فهيا بنا.. هيا نخرج من هذا المكان. فإن زوجك روميو ها هو ميت بجانبك. وباريس كذلك صريع بقربك.. هيا بنا فإني سأعرف كيف أتصرف في أمرك وأقيمك بين أخوات من الراهبات. فلا تسأليني عن أشياء إن تبد لك تسوءك ولا تترددي في المكث أو الذهاب. بل هيا بنا فإني أسمع وقع أقدام وأكبر ظني أن الحراس قادمون.. هيا يا جولييت الكريمة العاقلة الحكيمة.

وما كاد يتفوه بهذه الكلمات حتى تعالت الأصوات مرة أخرى فاضطرب لسماعها ووجفت أوصاله. وقال:

- البدار يا جولييت فلست أطيق هنا مكثاً ولا أجرؤ على البقاء.

ولكن جولييت لم تدرك من حديثه غير أن روميو قد مات، فبدا في عينيها بريق شرود وجنة وذهول وأنشأت تقول:

- حبيبي مات: زوجي الوفي الأمين قضي!

- ها هو ذا بجانبك فلا يجدي اليوم في أمره الكلام. وهيا لننجو من هذا المكان الرهيب.

ولكنه عبثا حاول إخراجها من المقبرة أو إقناعها بالذهاب، فلم يجد أمامه غير تركها والنجاة بنفسه قبل قدوم الحراس. وأهابت جولييت به:

- اذهب أنت ودعني فلن أبرح هذا المكان ولو قطعوا رأسي لديه وأوصالي. لقد مات حبيبي في هذا الموضع فلست بمفارقته وليس لي عند منصرف ولا ذهاب.

وتحاملت في تابوتها وأرسلت بصرها فيما حولها، وأقبلت على جثة روميو فأبصرت القارورة وهو لا يزال ممسكا بها في يده فقالت مبهوتة:

- ماذا أرى.. هذه قارورة.. وهو لا يزال قابضا عليها بيده.. رباه لقد اتخذ من السم وسيلة للقضاء على حياته..

وتناولتها في يدها فألفتها فارغة فصاحت به قائلة:

- أي روميو لأنت والله الشحيح الضنين أفهكذا شربتها حتى الثمالة فلم تترك فيها ولا قطرة رحيمة حانية، لكي أستعين بها على رحلتي التالية،

ولكن فلأقبل شفتيك، فمن حسن الحظ أن بعض السم لا يزال متحيرا عليهما لكي أموت مشتهية الموت منعشة بهذه القبلة المسمومة راضية.

وما كادت تقبل شفتيه حتى غمغمت قائلة:

- حبيباه.. لا تزال شفتاك ملتهبتين.

وفي تلك اللحظة طرق سمعها خليط من أصوات وجلبة، إذ كان الحراس قد جاءوا في أثر خادم الكونت دي باريس، وكان قد ذهب يلتمسهم حين رأى سيده يجالد روميو بسيفه. فغمغمت جولييت قائلة:

- رباه.. أسمع أصواتا.. إذن فلأسرع..

ولمحت خنجر روميو فصاحت قائلة:

- لك الله أيها الخنجر المسعف النصير.

ورفعته في كفها وهي تقول:

- فليكن صدري لك غمداً.

وطعنت به قلبها مغمغمة:

- فلتسكن أيها الخنجر في جرابك ولتصدأ فيه، فها أنا أموت لألحق بزوجي الوفي الأمين. أي روميو، أنا قادمة إليك ليجمع الموت بيننا، ما دامت الحياة قد فرقتنا.. روميو ها أنا ملبية

وسقطت فوق جثة روميو جسداً هامدا، وشهيدة حب لم تجد فيه رغدا..

-٦-

وصل الحراس في أثر غلام الكونت دي باريس إلى المقبرة فدلهم هذا على

الموضع قائلا:

- هذا هو المكان حيث ترون مشعلا يرسل بصيصا من النور فمشوا يتلمسون الطريق وسط القبور المتناثرة.

قال أحدهم:

- ما لي أرى الأرض بالدماء مخضبة! أيها الرفاق.. اذهبوا فتشوا جوانب المقبرة واقبضوا على من تجدونه واحتجزوه. يا الله.. إنه لمشهد تقشعر الأبدان من خيفته.. ها هو ذا الكونت طريحا غارقا في دمه! وها هي ذي جولييت كذلك صريعة دامية..

وأقبل يتحسس جسدها ثم عاد يقول في دهشة بالغة:

- إن جثتها لا تزال دافئة، وأكبر ظني أنها قد ماتت منذ لحظات فكيف ذلك وهي دفينة منذ يومين هنا ثاوية.

فتولاه الرعب مما رأى.. وبادر إلى إنفاذ بعض رفقائه إلى الأمير لينهي إليه الخبر وأرسل آخرين إلى آل كابوليت مستدعيا. وبعث حراسا غيرهم إلى عشيرة مونتاجو لإيقاظهم من المضاجع وهو يقول:

- ليأت القوم جميعا، فإنا لا ندري أسباب هذه الفاجعة وسر هذه المأساة الدامية.

وما لبث الحراس الذين ذهبوا يفتشون جوانب المقبرة ويجوسون خلالها أن عادوا وقد قبضوا على بلتازار خادم روميو. قال كبيرهم:

- هذا هو غلام روميو قد وجدناه في المقبرة.

فأجابه الحارس الأول قائلا:

- احتجزوه حتى يحضر الأمير.

وفي أثر هؤلاء جاء حراس آخرون يسوقون الراهب لورنس. قال أحدهم:

- لقد وجدنا هذا الراهب راعشا زافرا باكيا، وهو يحاول الخروج من المقبرة فأخذنا منه هذا الفأس الذي كان معه.

فأجابه رئيس الحراس:

- هذه شبهة قوية فاحتجزوه هو أيضا.

وما كاد الفجر ينبثق حتى وصل الأمير في عديد من حاشيته وأتباعه وجنوده، وعلى أثره جاء الشيخ كابوليت وزوجته وكثير من أفراد عشيرته سراعا. قال الأمير:

- يا عجبا. كيف جرى هذا الحادث في هذه الساعة الباكرة، حتى لقد أزعجنا من مراقدنا فجئنا مبادرين.

وترامت إلى القوم من بعيد صيحات وأصداء أصوات مختلفة؛ فقال الشيخ كابوليت:

- إن القوم في المدينة يصيحون باسم روميو، وجولييت، وباريس، وهم يعدون نحو المقبرة حاشدين منذ ذاع في المدينة مع الفجر فحوى الخبر.

وعند ذلك تقدم كبير الحراس نحو الأمير فقال:

- لقد وجدنا يا صاحب السمو جثة الكونت دي باريس طريحة مضرجة بالدماء وألفينا روميو بجانبه قتيلا، وجولييت مفارقة الحياة ولا تزال حرارة دمها في جثتها باقية وهي مطعونة بخنجر مغيب في صدرها إلى مقبضه.

- ابحثوا المكان وفتشوا نواحيه، وحققوا هذا الحادث العجيب وأتوني بما ترون

من أسبابه ودواعيه.

فأجاب كبير الحراس:

- لقد قبضنا على راهب وخادم لروميو وهما يحملان أدوات وفؤوسا لفتح المقابر.

ولم يستطع الشيخ كابوليت أن يمسك عليه جزعه، فصاح حين شهد فتاته مجندلة:

- رباه.. انظري يا زوجتي كيف تنزف ابنتنا دما. لقد أخطأ هذا الخنجر غمده في صدرها. وكان أحق به أن يتغمد في ظهر مونتاجو ويصيب من جسده.

فأعولت السيدة كابوليت وأجهشت بالعبرات وهي تقول:

- يا ويلتا.. إن هذا المشهد لأشبه بناقوس يؤذن شيخوختي بأن منيتي قد أصبحت دانية.

وأنهم لكذلك إذ قدم الشيخ مونتاجو في عديد من أهله. فابتدره الأمير بقوله:

- أقبل أيها الشيخ. لقد بكرت إلى اليقظة، حتى تشهد ابنك روميو قد بكر للنوم الأخير.

فكاد الشيخ يسقط من أثر المصاب وصدمته. قال والدمع يجول في عينيه:

- وامصيبتاه، فإن أمه قد قضت الليلة بالذات نحبها حزنا على فراقه وأسى على منفاه وكأن لم يكفي هذا الخطب الذي فدحني حتى أروع الساعة بما يهد عزمي ويحطم بقية حياتي.

فقال الأمير:

– انظر.. ها هو ذا صريع قتيل كما ترى.

فجعل الشيخ الحزين الواله يتوجع ويبكي على فقد ولده ويقول:

– يا له من عقوق يا بني. أفهكذا تستبق أباك إلى القبر وتتقدمه إلى الفناء وتستعجل الرحيل من هذا العالم وأبوك به أحق أن يستعجل. يا بني أما كان الأدب في حق أبيك حريا بك أن تدعه هو المستبق المتقدم.

وطفق ينتحب كالنساء، وقد اسودت الدنيا في ناظره. فأنشأ الأمير يقول:

– هوِّن عليك أيها الشيح المحزون قليلا. ولا تملك أسى، وتجلد ريثما تفتح مغاليق هذه المأساة وتستوضح من دقائقها ما غمض. ونتعرف منها الأسباب والدوافع والعوامل المؤثرة القاضية. ألا أيها الشيخ تجلدا وصبراً حتى نتبين الخافية.

وانثنى إلى الحراس فنادى:

– آتوني بالذين حامت حولهم الريبة.

فتقدم الراهب بين يديه فقال:

– ها أنا يا مولاي من تقع الشبهات عليه، وإن كنت أعجز إنسان عن الإجرام، وأنقاهم من التهم، لولا أن ظروف الزمان والمكان مجتمعة ضدي، محيطة بي. ولكن ها أنا يا مولاي بين يديك، فاستمع لي. فإني سوف أقص عليك حقيقة ما جرى. وما أبرئ نفسي

– علي إذن بما تعرف من هذه المأساة وأسرارها.

– إني لموجز شاهدا، فإن قصر أنفاسي من أثر الشيخوخة لا يجاري طول

قصة متراخية الحلقات متعددة. إن روميو الذي ترى ثم ميتا مجندلا، كان لجولييت بحكم الشرع بعلا. وإن لجولييت التي تشهدون الساعة ميتة مطعونة كانت لروميو زوجاً أمينة. وأنا الذي عقدت لهما، وقمت بتزويجهما. وكان يوم قرانهما خلسة، هو يوم خاتمة حياة تيبالت التعسة. وقد أدت منيته الباكرة، إلى نفي القرين الجديد من هذه الحاضرة. ومن أجله حزنت جولييت واغتمت. وإن تراءت الحزينة على تيبالت وتظاهرت. وأنت – مشيرا إلى الشيخ كابوليت– لكي تزيل عنها الهم الذي أحاط بها، اخترت الكونت دي باريس ليكون عروسها. وكدت تزوجها له قهراً عنها، فجاءتني مروعة تستنصحني. وفزعت إلى صومعتي لتستعين على الخلاص من هذا المأزق وتستشيرني وإلا قتلت بين يدي نفسها. لتنجو من بؤسها، فأعطيتها مما تعلمت. ودفعت إليها مما حفظت من أسرار صناعتي ووعيت، شرابا منوماً. ما كادت تجترعه حتى ظهر عليها من مفعوله ما أردت وهو أن تتراءى ميتة وهي في الحقيقة لم تمت. وفي الوقت ذاته كتبت إلى روميو في منفاه. أسأله المجيء ليحملها من مستعار قبرها حين يذهب عنها مفعول الجرعة المخدرة وتأثيرها ولكن خامل رسالتي الأخ يوحنا من الرهبان أخوتي أعاقه حادث فعاد أمس برسالتي وفي الساعة المعينة لقيتها جئت بمفردي إليها في وحدتها. لكي احتملها من مقابر عشيرتها. على نية إبقائها في صومعتي ريثما أنفذ إلى روميو رسولا برسالتي. ولكن حيت جئت قبل الأوان ببضع لحظات، رأيت الكونت باريس طريحا هنا طرحة الممات ووجدت روميو الوفي الأمين صريعا رهن المنون. ولما أفاقت جولييت من سباتها واستيقظت توسلت إليها وتضرعت أن تذهب معي من هذا المكان وتصطبر لما قدر الله فكان وتتجلد للهموم والأحزان. ولكني في تلك سمعت جلبة روعتني. فالتمست الانزواء في

مكمني وأما هي فمن فرط اليأس أبت رحيلا. وها هي ذي كما أرى أودت بنفسها قتيلا. كل ذلك كنت به عليما.. وكانت مرضعتها لسر الزواج كتوما، فإن كان لي فيما جرى ذنب. أو على منه جريرة، أو أتيت به أمراً منكورا، فلتكن حياتي الفانية، هي التضحية للقانون. ولئن استوجبت القسوة المتناهية. فما في حياتي من الساعات غير بقية واهية، فتلكن منيت قبل هذه البقية الباقية.

فقال الأمير:

– لقد عرفناك أيها الراهب رجلا أخا ورعا محسن الظن، ولكن أين غلام روميو، وما أقواله في هذا الحادث.

فتقدم بلتازار فمثل بين يدي الأمير وأنشأ يقول:

– لقد حملت مولاي روميو نعي جولييت فجاء مسرعا من مانتوا إلى هذه المقبرة، فدفع بهذا الكتاب إلى يدي، وأمرني أن أحمله إلى أبيه وهددني بالموت إذا لم أبتعد وأتركه وحده.

فقال الأمير:

– هات الكتاب لأنظر فيه.

وانثنى إلى الحراس فسأل:

– أين غلام الكونت دي باريس الذي استدعاكم.

فلما تقدم هذا بادره قائلا:

– نبئنا يا هذا ما الذي حمل مولاك على القدوم إلى هنا؟.

– لقد جاء يا مولاي لينثر الزهر على قبر جولييت وأمرني أن اتنحى بعيدا

ففعلت، وما لبث أن ارتفع لي شبح إنسان يقترب وهو يحمل مشعلا ليفتح القبر وما هي إلا لحظة أخرى حتى رأيت مولاي يجالده فعدوت في طلب الحراس.

فقال الأمير وكان قد تصفح الكتاب الذي كان روميو قد كتبه إلى أبيه:

- إن هذا الكتاب يؤكد أقوال الراهب ويعزز شهادته فقد قال روميو فيه أنه ابتاع من صيدلي رقيق الحال سما وجاء إلى هذه المقبرة ليشربه ويموت بجانب جولييت.

واستدار إلى رجال العشيرتين فأهاب بهم قائلا:

- يا آل كابوليت وقوم مونتاجو ألا ترون إلى اللعنة التي لاحقت عداوتكما، والنقمة التي لازمت خصومتكما، أو لا تبصرون عاقبة الشقاق وثمرة الخلاف، ونتيجة العداوة والبغضاء. لقد أرادت الأقدار أن تعطيكم درساً أليما، وعبرة بالغة. فقتلت بالحب أفراحكم، وفجعتكم بهذه الأحداث في شهدائكم. وأخذتني أنا كذلك بسبب إغضائي عن خصوماتكم، ففقدت عزيزين من أهلي. وأصبت في فقيدين غاليين مركوتيو والكونت، وكذلك نزل بالجميع عقاب فعسى أن يكون في هذا كله ما يردكم عن ضلالكم البعيد.

فتأثر الشيخ كابوليت مما سمعه، وانثنى إلى عدوه اللدود مونتاجو فناداه قائلا:

- هات يدك أيها الأخ مونتاجو أصافحها، ولنتعانق مليا، فحسبي هذا لجولييت مهراً لست أطلب عليه مزيداً.

فمد الشيخ مونتاجو إليه يده، وعانقه طويلا، وهو يقول:

- بل إني لمعطيك عليه مزيداً.. وذلك أنني سوف أقيم لجولييت نصباً من ذهب خالص ليكون لذكرها تخليدا.. فما في قصص المحبين وشهداء الحب أروع ولا أفجع من قصة وفاء جولييت.

- وسوف أقيم لروميو كذلك تمثالا لا يقل عن تمثالها الذهبي بهاء وجلالا، ليظلا قائمين متقابلين. ويقوما علمين خالدين، على أنهما كانا لعداوتنا ضحية أليمة وافتداء.

فأنشأ الأمير يقول:

- يا عجبا للمقادير وصروفها.. لقد طالعنا هذا النهار بسلام رهيب، وإن فقدنا في الخصومة الحبيب إثر الحبيب. وها هي ذي الشمس من أجل أحزاننا كاشفة لا تريد أن تظهر على أعيننا فهيا بنا لنتحدث في هذه المآسي والأحداث، ولننظر فيمن نعفو عنهم وفيمن يحق عليهم قصاص، فما في الفجائع الدامية، أخشى ولا أرهب، من هذه الفاجعة. فاجعة الشهيدة جولييت، وروميو العاشق الشهيد.

الفهرس